يوميات خديج

مولود في السابع من أكتوبر

الطبعة الأولى
1445 هـ
2024 م

اسم الكتاب : يوميات خديج
التأليف : سامية أحمد
موضوع الكتاب : رواية
عدد الصفحات : 152 صفحة
عدد الملازم : 9.5 ملزمة
مقاس الكتاب : 14* 20
عدد الطبعات : الطبعة الأولى
رقم الإيداع :3205/ 2024
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6697 - 74 - 2

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

رواية

يوميات خديج

مولود في السابع من أكتوبر

بقلم
سامية أحمد

دار البشير

الإهداء

إلى دنيا بلا رحمة.. يُقتل فيها الخُدّج ؛ ليحيا أراذل الخلق

إلى عالم لا يرى لا يسمع لا يتكلم...

لا يُنصف فيه مظلوم ولا يعاقب ظالم

إلى من يحكمون العالم ويشربون الأدرينوكروم

إلى جهنم وبئس المصير

مُقَدِّمَة

لماذا يحكي مثلي يومياته؟!

يصر الجميع أنني لن أتذكر فترة طفولتي...

يقولون إن الرضع لا يتذكرون ما يحدث لهم بعد الميلاد وطوال فترة الرضاعة، لكنني كأي طفل عنيد لا أصدق ما يقولون، وعلي أن أختبر ذلك بنفسي، فقررت أن أحكي يومياتي من بعد يوم مولدي وقبل أن أكبر وأمشي وأتكلم، فتلك الفترة من حياة أي طفل هي الأهم والأفضل، حيث يكون فيها ملكا مدللا بين أهله جاف، مرتوي، مكتفي، سعيد بمجرد أن يصدر صوتا يحصل على كل الانتباه، فإن يبكي؛ يطاع، وإن يضحك؛ يضحك له الجميع فبماذا يسلي مثلي وقته الطفولي اللذيذ ؟ وكيف يبعد عنه الملل؟

لذلك قررت أن أتحدى عالم الكبار وقوانينه، وأحكي يومياتي وأتمسك بها في ذاكرتي وأملأ بها ذكرياتي الأولى.

لأتذكر للأبد كل مشاعر التدليل والسعادة والمرح التي حصلت عليها في بدايات حياتي على الأرض.

لكن..

يبدو أن الحياة كانت تخبئ لي الكثير من المفاجئات، وعلي أن أبتلعها بحلوها ومرها.

وسأمضي في طريقي للنهاية ، وأحكي يومياتي مهما كانت الصعاب .

(1)

هل حاولت يوما أن تتخيل كيف يفكر الجنين!!

على عكس ما يظن أغلب الناس فالجنين له عقل، ربما غير مكتمل النمو بعد، لكنه يستطيع أن يفكر ويشعر ويحلم ولو لم يفهم البشر الكيفية.

الجنين كائن حديث العهد بربه، غادر عالم الذر لتوه، حاملا في قلبه الشهادة الأزلية التي يتوارثها أبناء آدم جيلا فجيل كل جنين تنفخ فيه الروح يتوقع من الحياة الكثير من الحفاوة، فهو يدرك بفطرته السوية أنه الخليفة المكرم، حامل نفخة من ربه جل وعلا، وكل ما في الكون مسخر له ولراحته ولتيسير حياته على الأرض؛ لذلك فهو يدرك بالفطرة قيمته ورفعة شأنه، وينتظر أن تقدم له الحياة الراحة والدفء والشبع والاطمئنان والهدوء والسعادة تلك هي حياتي الرائعة لشهور، قضيتها في قرار مكين حتى يحين موعد خروجي للحياة ولا أدري ما سيحدث لي بعد ذلك يقولون أن سبب بكاء المولود عند خروجه من الرحم ذلك لان أول اتصاله بالحياة يتلقى صدمة عنيفة صدمة الميلاد أما أنا فلم أتلق صدمة واحدة، بل صدمات متتالية جعلتني ناقما على كل شيء في الحياة أن تكون مولود، إذا فأنت مضطر للانتقال رغما عن أنفك من دفء

وأمان وشبع الرحم إلى برودة وجوع الحياة الانتقال من الراحة والأمان إلى التعب والكد والشقاء، وعليك أن تستخدم أقصى طاقاتك بالصراخ أو الرفس أو البكاء حتى الانهاك لتحصل على الغذاء والدفء والأمان.

لماذا لم يخبرني أحد بما سيحدث عند الميلاد؟!! قد أفكر جيدا قبل أن يلفظني الرحم، وقد أرفض الانتقال من عالم الراحة والدعة إلى عالم الكد والشقاء.

ولكني أدركت فيما بعد أن الأمر ليس اختياريا، فقد أجبرت على مغادرة عالم الرحم بصورة أسطورية ؛ لألقى أضعاف أضعاف المعاناة التي يتلقاها الأجنة الطبيعيون.

خطأ بسيط في التوقيت حول حياتي لجحيم حقيقي؛ فقد لفظني الرحم مبكرا قبل موعد ولادتي الطبيعي بعدة أسابيع؛ لأتحول- رغما عن أنفي- من مولود طبيعي إلى (خديج).

وهذا مستوى آخر من المعاناة، فأنا كخديج مضطر أن أصارع أولاً من أجل البقاء على قيد الحياة.

فأنا لست كسائر المواليد الذين يكفيهم من الحياة الرضاع والدفء والأمان، وأُمًا تفيض بالحنان تحرس وترعى وتغذي،بل أحتاج الى عناية خاصة جدا، إلى طبيب مختص يراقب ويتابع علاماتي الحيوية، أحتاج الى

مزيد من الأكسجين وبيئة معقمة، ودرجة حرارة تناسب ذلك الجسد الضعيف جدا ،والذي خرج من مكانه الطبيعي قبل أن ينضج، أحتاج الى رعاية طبية دقيقة ؛ كي لا يكون مصيري كمصير ثمرة خضراء سقطت عن شجرتها قبل أن يحين وقت قطافها، أو كبرعم تم قطعه، ولم يتفتح بعد؛ فلم يستطع إكمال دورة حياته الطبيعية.

أن أكون خديج فعلي أن أتقبل أن روحي سجينة في جسد قبيح غير متناسق، ومشعر يملأه الزغب، جسد ضعيف عليل أقل من حجمه بكثير وقد يكون بداخله أعضاء غير مكتملة النمو تحتاج لوقت ؛ لتصل إلى حجمها وأداءها الطبيعي.

أن أكون خديج، فأنا لست جميل كباقي المواليد الأصحاء الذين وصلوا للحياة في توقيتهم المناسب، بل أنا أزرق اللون مشرب بحمرة كجثة تحتضر من نقص الأكسجين، وجلدي رقيق شفاف يبدو من تحته الأوردة والشرايين كما لو كان لوحة شخبط عليها أحد الاطفال بقلم جاف، ورقة الجلد هذه تجعلني أشعر بالبرد أكثر من أي طفل آخر، فالدهون تحت الجلد لم يكتمل نموها، مما يعني أن درجة حرارتي غير مستقرة ،وأحتاج لنظام تدفأة خارجي للحفاظ على جسدي دافئا، وبيت زجاجي (حضانة) متطور ومجهز يحميني كنبتة صغيرة استنبتت في غير أوان زراعتها وتحتاج لصوبة تحميها وتبقيها حية.

إنه أول تحدي في حياتي، وعلي أن أكون شجاعًا؛ لأجتازه، وأخرج لساني للحياة وأقول برغم كل شيء لقد بقيت حيا، ولكن هل سأنجح حقا؟!

ما يجعلني مطمئنا هو أنني لن أبقى قبيحا للأبد، وسأنسى بعد فترة ما ولدت عليه فلا أحد يتذكر ما حدث في طفولته وهل ولد طفلا طبيعيًّا أم خديج؟، هذا إذا كان حظه حسنا ، وظل حيا إلى أن يكبر، فالكثير من الخدّج يموتون في المهد كل ما علي أن أفعله هو الصبر والمقاومة داخل الحضانة لأيام طالت أو قصرت حتى تنضج أعضائي الداخلية وأستطيع الاعتماد على نفسي في التنفس ، وبلع الطعام من دون تدخل طبي.

هكذا كنت أصبر نفسي على طول الساعات التي أقضيها في الحضّانة الطبية في المستشفى.

ولكن ما كان يشغلني طوال الوقت سؤال واحد: أين هي أمي، وكيف ،ولماذا ولدت خديج؟!

إن كل ما أذكره هو أن الرحم لفظني وسط ضوضاء مرعبة ، وعندما حاولت أن أحظى بالنظرة الأولى على الحياة، وجدت نفسي في المشفى والطبيب يدلك صدري بإبهاميه، لم أكن أدرى أن الحياة خشنة وقاسية إلى هذا الحد، مع كل ذلك البرد والألم والطبيب يدخل أنبوب

في حلقي؛ ليسلك مجرى التنفس، وفوجئت بأن صوتي ضعيف نظرا لضعف عضلات التنفس لدي، لكن حمدا لله فالجزء المتفائل من القصة يقول إنني لازلت قادر على التنفس وحدي ،ولا أحتاج بعد لجهاز التنفس الاصطناعي.

كرهت تلك اليد الخشنة التي تعبث بحلقي وتؤلمني وودت لو أتقيأ على ملابسه ؛ نكاية فيه، ما كنت أدرك وقتها أنني عاجز عن البلع، وأنهم سيعاقبونني بإطعامي عن طريق أنبوب رفيع يدخل إلى المعدة مباشرة، ويستغلون أنني أهتم ولن أعض خرطوم التغذية، عندما تكون بداية الأيام الأولى في الحياة بتلك القسوة والمأساوية، فلا تلومن من يكبر بقلب يمتلئ حقدا على الحياة.

عموما لم أصل لتلك الدرجة بعد، فلست في حال أسوأ من خديج لم يفتح عيناه بعد ، ويتغذى عن طريق الحقن الوريدي، فسرعان ما تنضج عضلاتي الداخلية وأستطيع البلع وأتخلص من وضعي المذري وتأتي أمي ؛ لتأخذني للبيت، وأبتعد عن هؤلاء الرعاع الثمانية والثلاثين الذين يملؤون الحضانات من حولي، حيث قادني حظي السيء أن أكون بين مجموعة من الخُدّج غريبي الأطوار في قسم الحضّانات، لا أراهم ولكني أسمع أصواتهم العالية، وأحسدهم على ذلك، فالصراخ القوي

العالي يأتي بالمساعدة والغذاء أسرع، ودائماً ما تجد الأطباء والتمريض يهرعون إلى الحضانة التي يخرج منها الصوت الأعلى، أما أمثالي ممن تشبه أصواتهم نقنقات الدجاج المضحكة لا ينتبهون لهم إلا إذا أصدرت الأجهزة المعلقة بأجسادهم صوتا أو أنبأت الشاشات المجاورة عن قراءات غير منتظمة في علاماتهم الحيوية، بخلاف ذلك لن تجد أحد يقترب منهم إلا في المواعيد المنتظمة لتناول الدواء أو الغذاء او تبديل الحفاض أو الفحوصات الروتينية.

هؤلاء الصغار المزعجون أحالوا حياتي جحيما بصراخهم وبت أحلم باليوم الذي سأخرج فيه من هذا المكان وأعود لأمي.

ألا زالت هناك مفاجآت أخرى أشد من أنني وصلت للحياة قبل موعدي بأسابيع؟!! أم أن الحياة اكتفت من مصائبي ، وعليها أن تلتفت لغيري من المواليد!!

أول درس تعلمته في حياتي بالإكراه، هو أنه لا حدود لمفاجآت الحياة، وأن المصائب هي القاعدة في الدنيا والهدوء هو استثناء نادر.

(لا شيء أسوأ من أن تولد في أخطر مكان للأطفال على الأرض) غزة..!!

لم يكن هذا رأيا من خديج ناقم على الحياة والمكان الذي ولد فيه، بل هو حقيقة وواقع أقرت به منظمات الأمم المتحدة، فاليونيسيف أعلنتها واضحة.

(قطاع غزة أصبح اليوم أخطر مكان يمكن أن يعيش فيه أي طفل)؛ لذا فلا تلومن طفلا خديجاً عندما يلعن حظه النحس، أو يتساءل ما الذي أتى بي الى هنا!!

فهو مولود في غزة أخطر مكان في العالم على الاطفال، وخاصة الخدج.

عندما أكبر سأسافر بعيدا عن هذا المكان الخطر.

من الصعب أن يصدق أي إنسان تلك الأقاويل عن ذلك المكان الراقي الذي فتحت عيني ؛ لأجد نفسي فيه أتلقى رعاية صحية بخدمة فندقية خمسة نجوم، فمجمع الشفاء الطبي هو أكبر صرح طبي في غزة.

يقع على مساحة 45 ألف متر مربع، ويضم مجموعة مستشفيات تخصصية، منها الجراحة والأمراض الباطنية والنساء والتوليد وحضانة الخدج والطوارئ والعناية المركزة ووحدة غسيل الكلى والأشعة وبنك الدم.

كما أن به عيادات تخصصية في مجالات الأنف والأذن والحنجرة،

والعظام، والمسالك البولية، والروماتيزم، وأمراض السرطان، وتخصصات أخرى.

ويحوى نخبة من أفضل الأطباء في التخصصات المختلفة.

كما أن الاطباء وطواقم التمريض مميزون بالسيرة الحسنة بين أهالي البلدة ؛ فها هنا بشر يصونون الحياة ويتعاملون مع المرضى والمصابين من مبدأ (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا).

الأيام التي قضيتها هنا جعلتني أدرك أنني بين يدي طاقم طبي من المحترفين يجيدون التعامل مع الحالات الصعبة ويفعلون ما بوسعهم؛ لإنقاذ حياة الخُدَّج، بالإضافة إلى أن الحضانات والأجهزة حديثة، وعلى أعلى مستوى، أستطيع أن أقود حملة للدعاية والإعلان بنفسي، وأدعو الأطفال ؛ لقضاء فترة استجمام داخل قسم الحضانات في مستشفى الشفاء؛ لما أجده من حسن معاملة ورعاية -أمزح بالتأكيد- فتلك الصورة المثالية بدأ يتضح جانبها الآخر مع تقدمي في العمر يوماً بيوم.

وقبل أن تسوء الأحوال كنت أقضي أيامي الأولى هنا أشعر بالدفء والاستقرار، فدرجة الحرارة قياسية داخل بيتي الزجاجي الشفاف، ولا أصوات عالية ولا جوع ولا عطش، قد أعاني قليلا مع أنبوب الإطعام الرفيع الذي دسوه في حلقي، لكن هذا يجعلني أفضل مع وصول الطعام

في توقيته المنتظم لمعدتي الصغيرة، وحفاضاتي يتم تغييرها بانتظام، مع صوت أم أويس الحنون التي تدللني وتحدثني بلطف وتبتسم في وجهي، وأحيانا تغني لي أغاني الأطفال عندما يكون مزاجها رائقا.

إنها ممرضة القسم النشيطة التي تشرف على رعاية مجموعة من أطفال القسم وأنا أحدهم، وفي كل صباح يمر الطبيب ناصر - رئيس قسم الحضانات- ذو الوجه البشوش والصوت الهادئ، فهو يحرص دائما على عدم إزعاج الاطفال ولو بالصوت العالي، يطمئن على كل فرد منا في حضانته، ويقوم بمتابعة الحالات المرضية ووصف ما يستلزم لعلاجهم.

عندما أكبر ؛ سأكون طبيبا كالطبيب ناصر، فهو رائع في مجاله، وليس هو فحسب، بل مدير المجمع الطبي أيضا يهتم بكل صغيرة وكبيرة في المكان، ويباشر عمله بإخلاص، ويمر على الأقسام باستمرار؛ ليري ما ينقصها من مستلزمات طبية وعلاجية، ويزورنا في قسم الحضانات من وقت لآخر.

لكن زيارته هذه المرة لا تبشر بخير، فقد كان قلقا وهو يتحدث إلى الطبيب ناصر: اكتب لي تقريرا مفصلا عما ينقص القسم من أدوية ومستلزمات طبية، لقد أبلغت الصيدلية والمخازن أن الأولوية لقسم الحضانات.

قال ناصر: سأفعل إن شاء الله، المؤلم أنهم سيشددون الحصار ككل مرة ويمنعون القليل الذي ما كان يكفينا في الأساس.

قال الطبيب محمد: بل سيضاعف ثمن كل شيء، وتصير موجة غلاء فاحش، وعلينا أن نتعامل مع الوضع مهما كان.

قال -بأسف-: فقط أتمنى ألا تطول فترة انقطاع الكهرباء ؛ حتى لا تتوقف أجهزة الأكسجين.

قال الطبيب محمد: سأفعل كل ما بوسعي ؛ لتدبير الوقود اللازم لتشغيل المولدات، المهم أن هؤلاء الصغار لهم الأولوية في كل شيء، فلا ذنب لهم أن ولدوا في عالم متخم بالظلم.

لم يكن كلامه مطمئنا، لكنني - كما قال- مضطر أن أتعامل مع الوضع مهما كان، فلا سبيل للعودة حيث كنت، وأنا عالق هنا على تلك الأرض.

إنه الموعد اليومي للعم أبو خالد، أعرفه من رائحة المنظفات والمطهرات التي تنتشر مع صوت أقدامه ،وقرع عصا الممسحة على الأرض، فهو المسئول عن التنظيف مرة في الصباح ومرة في المساء، ولا يتأخر عن موعده أبدا، ويتسلى بالحديث لنا والنظر والابتسام في وجوهنا كلما اقترب من حضانة أحدنا، هو رجل ظريف ومسلي ومثقف، ويقرأ

كثيرا، ويعرف تاريخ البلدة وكل أحيائها وطرقها وحواريها، ويحكي لنا أحيانا عن موقف مر به، أو حزن يثقل قلبه ، أو يحكي ما يحدث في ساحات المستشفى او خارج المستشفى، فهو يعلم أننا مستودع أسرار لن يبوح بما يسمعه أبدا.

وأحيانا يحكي لنا حكايات ظريفة عن القطة اللطيفة التي تربيها ابنته الصغرى وقططها الخمسة الصغار.

دخلت أم أويس القسم وسلمت عليه، إنه موعد استلام نوبتها، ثم سألته عن ابنته التي تتابع حملها مع طبيبة العيادة في المستشفى: كيف حال رغد؟ هل قامت بعمل فحص الموجات مع الطبيبة؟

قال- بامتنان-: يعطيك العافية، فعلت، والحمد لله النتيجة سليمة ومبشرة، والطبيبة أخبرتها أن موعد الولادة قريب جدا.

قالت -بارتياح-: الحمد لله، أسأل الله لها السلامة، وأتمني أن ينتهي ما نحن فيه قبل أن تضع طفلها.

ضحك قائلا: إنها طفلة بإذن الله، وكأنه قدر على أهل بيتي أن أرزق بوليد كلما قامت الحرب على غزة، فكل واحد وواحدة من أبنائي يتزامن يوم مولده مع حدث جلل في هذه الأرض، والآن ترث حفيدتي الأولى نفس الخاصية.

قالت: إن شاء الله سيكون ميلادها خير وبركة على أمها وجدها وكل أحبائها.

هكذا تمر ساعاتي الأولى في الحياة بلا مشاكل - تقريبا- حتى لو صادف وقت إطعامي نوبة تواجد سعيد، ذلك الممرض الذي التحق بالعمل في المستشفى حديثا وهو شاب لم يكتسب بعد الخبرة للتعامل مع أمثالي، وطلب العمل في القسم ؛ ليدرس ويتمرس أكثر في التعامل مع حالات الخدج؛ حيث ينوي أن يتخصص في المجال، لكن.. كَفَّاه يابستان ويسبب لي الألم إذا ما حاول حملي أو اطعامي، برغم أنه يحاول جاهدا اتباع تعليمات أم أويس التي تعلمه كيف يتعامل مع الخدج، لكن ما من طفل يلمسه إلا وينفجر في البكاء.

هل علي أن أشكو للطبيب ناصر حتى يبعد ذلك الغِر معدوم الخبرة عني!! أم أبكي لأم أويس ؛ لتبقى هي معي وتدع سعيد يهتم بالآخرين.

عندما أكبر ؛ لن أكون ممرضا كسعيد، أفضل أن أصبح كالعم أبو خالد عامل نظافة، وراوي للحكايات وأب وإنسان يحبه كل من يعرفه ويسمع حكاياته.

برغم أنني لا أحب أن يلمسني سعيد، لكن ليت كل المصائب التي تواجه الإنسان في حياته كسعيد، لكن الحياة ليست بتلك الرحمة

واللطف، فسرعان ما تبدأ أيام الراحة والهدوء بالأفول وتحل أيام نحسات لا يعلمها الا الله.

وذلك عندما دخل إلى القسم ذلك الطفل المزعج الذي لا يكف عن الصراخ ليلا أو نهارا حتى سبب حالة توتر بين الأطفال ، وصار بعضهم لا يتوقف عن البكاء ربما خوفا من صوت ذلك المزعج.

لم يكن خديجا مثلي، علمت ذلك من أم أويس وهي تتحدث لسعيد عنه بالقرب من الحضانة التي تجاورني، ذلك المزعج الذي أسموه -رائد- كان طفلا مكتمل النمو ومولود بشكل طبيعي، لكنه أصيب في رأسه إصابة عنيفة جعلته يصاب أحيانا بتشنجات وأعراض مقلقة، فوضعوه في قسم الحضانات تحت الملاحظة والفحص الدقيق حتى يطمئنوا أن الإصابة لم تؤثر على المراكز الحساسة بالمخ.

شغلني سؤال لبعض الوقت، ترى من منا الأكبر؟ لو كان القياس شهادة الميلاد واليوم الذي خرجنا فيه للحياة؛ إذا فأنا الأكبر، ولو كان القياس بالوزن والصحة العامة ونضج واكتمال الأعضاء ؛ إذا فهو الاكبر بالتأكيد.

ليس كل من يصل أسرع يكون فائزاً، أحيانا يكون الوصول السريع نقمة، ولكن ما الذي أصابه في رأسه وجعله يضطر للعودة للمستشفى ولقسم الحضانات لتلقي العلاج!!

كنت أنصت للطبيب ناصر وهو يقف الى جوار حضانته ويتحدث لمساعده الطبيب الشاب أحمد: يحتاج إلى أشعة؛ لنطمئن أنه لم يصب بشرخ.

سأله أحمد: أخشى أن يؤثر كثرة صراخه على أحباله الصوتية.

أملاه الطبيب ناصر الخطة العلاجية التي سينفذها مع رائد، ويبدو أننا سنرتاح لبضع ساعات من صراخه ،فقد وصف له مُسَكِّن .

لم أفهم أن المزعج الصغير أصيب في رأسه في إحدى الغارات، إلا عندما بدأ الجحيم يفتح أبوابه تدريجيا؛ ليطل بوجهه القبيح على الأرض التي ولدت فيها -لسوء حظي- وكانت البداية.

في التاسع من اكتوبر..

من دون أن أفهم أو أستوعب أي شيء، أفزع لأصوات انفجارات تصل لأذني من بعيد، يعقبها أصوات ضوضاء وحركة غير عادية في المستشفى.

وسرعان ما أخذ الجميع يتحدث باسترسال عجيب عن أن الطائرات أغارت على مبنى تجاري قريب من المستشفى، وكأنه حدث اعتيادي يألفه الناس هاهنا.

من ذا الذي يصدق أن أول ما يدخل أذن الوليد في الحياة من معاني،

هو معنى كلمة غارة جوية، بدلا من أن ينصت للكلمات التي تقال للمواليد الطبيعيين، مثل رضاع، نوم، لعب، أو حتى بكاء.

لكن هنا في غزة كل شيء مختلف عن أي مكان آخر بالعالم

المهم هو أنني تعلمت كيف تكون الغارة الجوية بالطريقة العملية الصعبة، عندما يضرب أذنيك صوت رعد مريع يخلع قلبك من مكانه، وتشعر بأن كل شيء حولك يرتج رجا ، وكأن الحياة سوف تنطبق بأركانها الأربع فوق رأسك ؛ فترتجف كل خلية في جسدك من الرعب.

هل يمكن أن يعتاد المرء ذلك الشعور؟!! ربما.. بعد أربع أو خمس مرات ستعتاد الأمر ويقل خوفك، وتتوقع ما سيحدث بمجرد أن تبدأ الغارة، بعدها تحمد الله على إفلاتك من الموت تلك المرة على أمل أن تنجو في المرات القادمة.

ثم تعود؛ فتتذكر أنك في مستشفى عندما تجد حشدا من الأجساد المصابة بدماء مهراقة يجتاز أبواب المستشفى مهرولا أو محمولا على محفات رجال الدفاع المدني أو محمولا على أذرع ذويهم، مع الكثير من أصوات الألم والبكاء والعويل والتوسل أن ينقذهم أحد الأطباء أو يساعدهم أحد أفراد التمريض.

في تلك اللحظات العصيبة يقل عدد العاملين بالقسم حيث يساعد

أغلبهم في الطوارئ، ولا يبقى معنا إلا واحد فقط، وتبدأ المشكلة بالتعقيد عندما يبكي أكثر من طفل مطالبا باحتياجاته الأساسية، ولا يمكن لواحد مهما كانت قدراته الملاحقة على 36 خديج وتلبية احتياجاتهم، لا تتعجب فأنت في غزة، وما يحدث هنا لن تجد له مثيلا في العالم، لن تجد وليدًا أسوأ حظا مني، عندما يجتمع علي قسوة الولادة المبكرة وقسوة أن تكون مواطنا في مكان كغزة.

مع مرور الساعات تمتلئ المستشفى بكل أنواع الإصابات الخطيرة والمتوسطة، وتتحول إلى ساحة للركض في كل اتجاه، وكلما قضى أحد المصابين شهيدا ؛ يستلمه أهله ويحملونه في جنازة لائقة، أو لو لم يصل إليه أهله، يخرجون جثمانه إلى باحة المستشفى؛ ليخلي مكان لمصاب غيره.

في أيام كتلك، وما أكثرها في السنوات الأخيرة – كما تقول أم أويس– يهجر جميع العاملين في المستشفى من أطباء وممرضين ومسعفين بيوتهم وأهاليهم وينخرطون في عملهم في المستشفى، لا يعرفون للراحة سبيلا، ويواصلون الليل بالنهار ويمر عليهم اليوم تلو الآخر في نوبات عمل متتالية، في سبيل انقاذ أكبر عدد من الأرواح ومساعدة الكثير من المصابين.

في مساء الثاني عشر من أكتوبر..

صرت معتادًا على صوت الرعد الذي لا يتوقف بالخارج، وأتوقع ما

يحدث بعده، ففي كل مكان بالعالم صوت الرعد يعقبه أمطار من غيث السماء، أما في غزة فهي تمطر فقط شهداء ومصابين.

صارت باحة المستشفى مزرعة لجثامين الشهداء، تتكاثر وتتضاعف في سويعات، وبدأ عقلي الصغير يتساءل من أين تأتي كل هذه الجثث، وسرعان ما كان يأتيني الجواب من حوار بين العم أبي خالد وسعيد، أو من حديث أم أويس لأحد العاملين أو الأمهات اللاتي يزرن أطفالهن، ويحكين عما يحدث بالخارج من غارات الطائرات على أرجاء القطاع مخلفة الكثير من الشهداء والجرحى، فيحملهم الناس راكضين للمستشفى.

هؤلاء الأمهات يذكرنني بأمي، فكلما دخلت أم لقسم الحضانات تنظر لطفلها وتطمئن عليه؛ أشتاق لأمي وأتساءل أين هي ولم لا تزورني!! ربما هي مريضة أو تعاني من مضاعفات الولادة المبكرة، وربما كانت في مكان بعيد ، ولا تستطيع الوصول للمستشفى، لقد سمعت دكتور ناصر وهو يتحدث مع أم أويس ويشرح لها أن هناك في الشمال حرب ضروس تدور رحاها وتصب الحمم النارية من السماء على رؤوس الناس صبا.

(2)

يولد عشرات الآلاف من الأطفال يوميا على الأرض في أماكن جميلة، هادئة، ترحب بالمواليد وتلتزم بالمواثيق الدولية في حماية الطفولة ورعاية الأطفال، وينمو الأطفال فيها في رغد وسعادة.

أما أنا فقد ولدت في بقعة من الأرض لا يمضي فيها يوم لا تخمد فيه نار ولا تهدأ فيها حرب، فهنا لا يعيش الناس كما ينبغي أن يعيش الناس.

هنا يتعلم الطفل معنى الموت من قبل أن يتعرف على معنى الحياة

من حق أي طفل يولد هنا على هذه الأرض أن يتساءل عما يحدث ولماذا يحدث؟ ، ولماذا تمطر السماء على رؤوس البشر صواريخ وقذائف؟!! ولماذا هو – كمولود في هذه الأرض– مستهدف بالقتل!!

القصة باختصار شديد، في السابع من أكتوبر الماضي وقبل أن أولد بعدة ساعات، استيقظت إسرائيل على نخبة من مقاتلي كتائب الشهيد عز الدين القسام –الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)– وقد اقتحموا مستوطنات غلاف غزة وقاتلوا جنود الاحتلال ، ثم أسروا عددا كبيرا منهم، ومن بينهم قيادات عسكرية

كبيرة، واستولوا على معلومات استخباراتية من حواسيب القيادات، وفر أغلب مستوطني الغلاف بسبب انهيار المنظومة الأمنية لجيش الاحتلال في هذه المستوطنات.

وعندما أفاق جيش الاحتلال إسرائيلي على الكارثة بعدها بعدة ساعات، استخدم سلاح الطيران؛ لشن هجمات جوية على المدنيين في قطاع غزة، بعد أن فشلوا في القبض على أي من المهاجمين للقطاع أو تتبعهم، وأعلنت حماس اسم الهجوم بعملية طوفان الأقصى.

وشكل جيش الاحتلال مجلس حرب، وأصدر تصريحات بفتح جبهة حرب لن تتوقف حتى القضاء كليا على حركة حماس، وحتى إعادة الأسرى إلى عائلاتهم.

لست بحاجة أن يحكي لي أحدهم ما حدث قبلها على هذه الارض، فذلك هو الصراع البشري الأشهر في الكون، ويراقبه عالم الغيب وعالم الشهادة على مر الأزمان، فئة تدافع عن أرضها وفئة يقتلونهم؛ ليسرقوا الأرض ويقيموا عليها مستوطنات لحثالة الأرض.

يبدو أن منطقة بيت المقدس وأكنافه هي صك العقيدة وبوصلة الإيمان، وهي الحمى الذي يجب أن يسعى لحمايته والذود عنه كل صاحب عقيدة في أي زمن منذ خلق الله الأرض وحتى قيام الساعة،

وضعها الله في الارض كاختبار لأهل الإيمان وأصحاب العقيدة، الذين قال عنها الرسول ﷺ أنهم في رباط الى يوم الدين.

لا تسألني إن كنت منهم وهل أنا مستعد لشراء الصك واتباع البوصلة!!

الأمر لا يتعلق بما أتمنى، بل بالثمن الذي يجب أن أدفعه ؛ لأصير من هؤلاء الذين يدافعون عن المسجد الأقصى، وأقر وأعترف بأنني لا أمتلك ذلك الثمن ولست مستعدا لامتلاكه، ولا أريد العيش في هذا المكان وبمجرد أن أبلغ العمر الذي أستطيع فيه الخروج من تلك البلدة وتغيير الواقع الذي ولدت لأجد نفسي فيه، فلن أتردد لحظة في الهروب نحو إحدى الدول الأوروبية وإن كان على متن قارب مطاطي في بحر محفوف بالخطر تحت كل موجة من أمواجه.

سمني جبانا، لكن الأمر حقا أكبر من قدرتي النفسية والجسدية فما أنا إلا خديج أكافح فقط ؛ لأستطيع ابتلاع بعض الحليب الذي يبقيني حيا.

ولست المسئول عن تغيير واقع ولدت لأجده قائم هنا في فلسطين فمنذ أكثر من خمسة وسبعين عاماً، واليهود يدعون كذبا أن لهم حق تاريخي وديني في هذه البقعة من العالم، وقد استولوا عليها بقوة السلاح والعالم كله يقف خلفهم، فما أنا إلا كائن ضعيف، مريض، لا أستطيع أن أطالب بأرضي التي اجتمع العالم على طردي منها، وأي قوة لدي لأغير واقع فرض بقوة السلاح وبمؤامرة عالمية منذ عام 1948.

وحتى الآن لازالت المؤامرة مستمرة، فالعالم كله يعترف بوجود إسرائيل على تلك الأرض وحقها بالعيش فيها.

حتى جوجل يضع اسم إسرائيل على تلك البقعة من هذه الأرض في كل خرائط العالم، وما من أحد في العالم يستطيع أن يغير هذا على الأقل في هذا الجيل الذي أنتمي إليه لا تحلم بما لا تستطيع تحقيقه

في الرابع عشر من أكتوبر..

لم يكن يتوقع أحد من المستشفى أن تصل النار سريعا للعاملين في المؤسسة الصحية العريقة وأكبر مجمع طبي في غزة، لم تصب النار المباني ولا الساحات، لكنها أصابت قلب المستشفى النابض، وأغلى ما فيها.. أطبائها وممرضيها.

لا تتعجب من كلماتي، فبرغم نقمتي على المكان الذي ولدت فيه، لكنني أقدر وأجل هؤلاء الذين كانوا سببا في وصولي للحياة سالما ورفاقهم في المهنة من كل التخصصات، فهم من يبذلون جهدهم ، لأبقى على قيد الحياة.

كنت أتمنى كأي طفل ساذج أن أصبح عندما أكبر طبيبا، لكنني بدلت رأيي عندما اكتشفت أنها مهنة خطرة على حياة صاحبها؛ فقد فجع جميع العاملين في المستشفى باستشهاد أحد أفضل الأطباء بالمستشفى، إنه طبيب الحروق والجراح البارع الدكتور مدحت صيدم.

خبر استشهاده سبب صدمة تركت أثرا عميقا في وسط الطاقم الطبي، ليس فقط ؛ لأنه طبيب برع في تخصص تزيد الحاجة له وقت الأزمات والحروب، وله من الخبرة العظيمة في مجاله عشرون عاما أو يزيد، وشهد أغلب الحروب والتصعيدات السابقة في القطاع، لكن الطريقة التي استشهد بها، جعلت الجميع في حالة قلق وتحفز.

كان الطبيب مدحت متفانيا في عمله، لم يغادر المستشفى إلا بعد دوام استمر سبعة أيام متواصلة، ذهب ؛ ليطمئن على عائلته، لكن صاروخ إسرائيلي أطلق على منزل عائلته؛ ليقضي على جميع من في البيت تحت ركام منزلهم، ويخسر مستشفى الشفاء واحداً من أكفأ العاملين في مجاله.

في الخامس عشر من أكتوبر..

تتوالى الصدمات والفواجع على العاملين في المستشفى، باستشهاد عمر صالح فروانة، أبرز أطباء العقم وأطفال الأنابيب تحت حطام منزله بحي تل الهواء جنوبي مدينة غزة عند منتصف الليل بعد عودته من عمله في مجمع الشفاء الطبي. فقد قامت طائرة حربية إسرائيلية بقصف بيته فاستشهد مع 16 من أفراد أسرته.

خسر العالم طبيباً فذاً كان عميداً لكلية الطب في الجامعة الإسلامية بغزة، وخبرة 30 عاما في علاج العقم وأطفال الأنابيب.

لم يقتصر الأمر على هؤلاء فحسب، بل اتضح فيما بعد أن استهداف الأطباء أمر متعمد، بل هي عمليات اغتيال مقصودة ضد أصحاب التخصصات النوعية من الأطباء في غزة، وأكثرهم خبرة ومهارة.

حتى كتابة هذه السطور، قامت النقابات الطبية بتوثيق أسماء 38 طبيبًا من قطاع غزة ممن استهدفهم الاحتلال الإسرائيلي بقتلهم من خلال قصف بيوتهم بشكل مباشر ومتعمد. ووثق كذلك استشهاد 24 طبيبا صيدلانيا، و11 طالب طب، و65 ممرضًا، و14 فني مختبرات، و6 علاج طبيعي، و3 أكاديميين في العلوم الصحية، و18 ضابط ورجل إسعاف.

السادس عشر من أكتوبر..

تراصت جثث لمجهولي الهوية في ساحة المستشفى، بعد تعذر التعرف على هويات أصحابها الذين سقطوا في قصف إسرائيلي، ووضعت الجثث في أكياس بيضاء، ووقف عشرات النازحين والعاملين بالمستشفى يصلون صلاة الجنازة على أصحابها ويترحمون على أرواحهم.

هؤلاء الضحايا هم من يدفنون في المقابر الجماعية حيث لا يعلم أحد أين أهلهم ولا يعلم أهلهم أين هم؟!

ومع توافد الجرحى والمصابون من جميع الجهات، تتوالى على

المستشفى انذارات الإخلاء، ففي الأيام السابقة دأب جيش الاحتلال على إلقاء منشورات التحذير، حيث يطلب من الجميع مرضى وطواقم طبية ومرافقين ونازحين إخلاء المستشفى وإلا فهو غير مسئول عن ما سيحدث لهم.

التهديد الصريح من جيش الاحتلال جعل القلق ينتشر بين المتواجدين في المستشفى بشكل عام، وبين الطاقم الطبي بشكل خاص، هل يمكن أن تضرب الطائرات مؤسسة صحية!!

وحتى لو فكر أحد في الاستجابة للإنذارات والخروج من المستشفى، أين تذهب كل تلك الأعداد التي تتضاعف على مدار الساعة !! ما من مستشفى واحد في غزة يمكن أن يستوعبهم، ومجمع الشفاء هو أكبر مستشفى حكومي في القطاع في المساحة وفي عدد الطواقم الطبية.

سمعت سعيد يتحدث مع العم أبي خالد عن أن تلك الانذارات تلقى أيضا على الكثير من مستشفيات القطاع، مثل مستشفى الرنتيسي والأهلي العربي والنصر وغيرهم.. والجميع يخشى من أن ينفذوا تهديدهم ويقصفوا المستشفى .

(لا تصدق يا رجل، لازلت صغيرا بعد على فهم العقلية الإسرائيلية، إنهم يكذبون بكل الأحوال) هكذا رد عليه العم أبو خالد، لكن سعيد

لم يقتنع، فجادله قائلا: وما الذي يمكن أن يوقفهم إذا ما قرروا قصف المستشفى!!

قال- متهكما-: لازالت اسرائيل تعطي بعض الاهتمام لصورتها أمام العالم بتمثيل دور الدولة الديمقراطية التي تراعي القانون الدولي، ولن تعرض نفسها لجدال في المحافل الدولية بقصفها مؤسسة صحية، لقد أنفقوا الكثير ؛لتحسين صورتهم القذرة في عيون العالم.

هز سعيد رأسه بغير اقتناع: بعد كل ما يفعلونه بغزة في الأيام الماضية، هل تعتقد حقا بأنهم يبالون برأي العالم، أو أن تكون صورتهم جيدة في المحافل الدولية!!

لم أكن مقتنعا برأي سعيد وأنا اتنصت على حديثه مع العم أبي خالد، فهو أصغر سنا وأقل خبرة، والعم أبو خالد يعرف أكثر منه، لكن صدق توقعه وأثبتته الأيام التالية.. أعني الساعات التالية..

أيام أو ساعات أو حتى شهر، فها هنا على أرض غزة لا حدود للزمن في الإسراع أو الإبطاء، وفي زمن ما قد تمر الأيام على الناس كدقائق أو ثوان، وفي الكثير من الأزمنة، تمضي الأيام كشهور أو سنوات من فرط ثقلها على البشر.

لم يصدق العم أبو خالد في شيء كصدقه في وصف اليهود (إنهم يكذبون بكل الأحوال) كما حدث في مساء السابع عشر من أكتوبر..

كلما دخل الطبيب ناصر القسم؛ تتعلق به عيني وأبدأ في البكاء بصوتي الضعيف لعله يسمعني، أنتظره يقترب مني لعلي أحظى بنظرة عطف أو ابتسامة حانية.

لم يكن فقط استجلاب اهتمام من أعلى قمة في الهرم في العاملين بالقسم، بل كان أيضا خوفا وهلعا من أن أستيقظ يوما فلا أجده في الحياة، فهو ماهر في تخصصه وفريد من نوعه، بات لدي يقين بأنه السبب في نجاتي، وأنني لن أستطيع أن أبقى لو استشهد كالأطباء الآخرين.

عندما يقترب مني ويبتسم في وجهي ويتحدث إلي يهدأ خوفي وأكف عن البكاء، فيتفحص جسدي الصغير بيدين محترفتين، ويطمئن على، ويهدهدني بصوته الهادئ الحنون ويطمئنني على نفسي، حيث أفكر بأنني يمكن أن أقاوم؛ لأستمر في الحياة دخل عليه الطبيب المساعد أحمد، وأخذ يحادثه باهتمام: هل ستعود للبيت بعد انتهاء الدوام؟

انتفض جسدي من صوته العالي المفاجئ، أو ربما من نبرة الخوف التي تتناثر من بين كلماته.

لكن الطبيب ناصر رد عليه بصوته الهادئ: أخفض صوتك حتى لا تزعج الصغير (يأسرني ذلك الحنان والاهتمام) على أن أطمئن على أهل بيتي، ابنتي لم تكف عن الاتصال بي، وابني لا يكف عن مشاكسة أمه ، ويريد الخروج من البيت في هذا الوقت الصعب.

قال أحمد بقلق: أخشى أن يرصدوا تحركاتك ويستهدفوا بيتك وأنت فيه كما فعلوا بالأطباء الآخرين.

قال الطبيب ناصر: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وما الفارق أن يستهدفوني هنا أو في بيتي، إنما الموت واحد

قال أحمد: أسأل الله ألا يفجعني فيك، فأنت أستاذي الذي أفخر بأنني رافقته وتعلمت على يديه.

قال- باسما-: إن شاء الله ستمر الليلة بسلام، وتجدني غدا في الصباح فوق رأسك أراقبك وأحاسبك وأسألك هل اتبعت التعليمات كما ينبغي أو قصرت في عملك!!

تنهد أحمد وقال: لماذا رفضت عرض المستشفى العالمي في الخليج؟!!

نظر اليه ، ثم سأله : وكيف عرفت!!

- الأمر ليس سرًا، جميع الأطباء يعرفون بأمر العرض، كما أنه وصل لبعض الأطباء في الأقسام الأخرى عرض مماثل.

- إنما أسأل كيف عرفت أنني رفضت العرض؟!!

حدق فيه قليلا بصمت وبدا أنه لا يجد جوابا محددا على السؤال، ثم قال: لا أدري، ربما توقعت رفضك من كثرة احتكاكي بك ومعرفتي بشخصيتك.

– لقد رفضت العرض بالفعل.

– لماذا!! قد يكون فيه نجاتك، لقد مر بك الكثير من الأهوال طوال السنوات الماضية، يكفى ما قدمته في حرب ٢٠١٤

– طوال تلك السنوات والحال لم يتغير، بل على العكس، الحصار يشتد والموارد والإمكانيات تقل، وأعداد الكوادر بالقسم تقل، فمن سيرعى هؤلاء الصغار! ربما لو لم يكن هناك حصار خانق يمنع دخول الأجهزة التي نحتاجها وقطع الغيار، ربما لو كان يعمل بالقسم عدد كافي من الكوادر الطبية وطاقم التمريض، وقتها قد أفكر في العمل في مكان آخر.

تنهد أحمد بأسى: وماذا عني، كيف أتصرف!! لا أريد أن أتركك ولا أترك القسم، بل لا أريد أن أترك مستشفى الشفاء، أشعر بأن هنا مكاني.

قال: الأمر مختلف، أنت ستسافر ؛ لتدرس في منحة طبية من جامعة عريقة في المجال الطبي، نحتاج هنا الى أطباء محترفين مطلعين على أحدث التقنيات العلاجية في المجال، عليك أن تسافر؛ لتتعلم، فهؤلاء الصغار يستحقون الأفضل.

ابتسم الطبيب ناصر في وجهي بحنان وأنا أنظر اليه من خلال سقف الحضانة الشفاف، وأخذ يعدل الأنبوب ويثبته على وجهي بشريط لاصق طبي جديد، وأنا أحمد الله أنه لم تكن يدي أحمد أو سعيد، بل يدي

الطبيب ناصر الماهرة الحانية، وقال: سأذهب الليلة إلى البيت وأعود سريعا لأجل ذلك الصغير الجميل ورفاقه، ولا تبعد عينيك عنهم أبدا حتى أعود.

تنهد أحمد وقال: الليالي تمر بطيئة، صعبة مع القصف الذي لا ينتهي، وأعداد الشهداء والمصابين تزداد يوما عن يوم وتتكدس في المستشفى، متى سينتهي كل هذا!!

قال بثقة: يوما ما سينتهي، لقد اعتدنا ذلك من الحروب السابقة، شرد ببصره وكأنما يسترجع الماضي وقال – بأسف–: من ذا الذي يتخيل أن قطعة صغيرة من الأرض كغزة تبتلى بخمسة حروب في خمسة عشر عاما فقط من واحد من أقوى جيوش العالم.

سأله: هل تظن أنهم يمكن أن يقصفوا المستشفى!!

أكره هذا الطبيب، فلهجته المتشائمة جعلت الطبيب ناصر يتوقف عن رعايتي، وينتبه له بقلق: لا شيء بعيد عن العقلية الاسرائيلية السادية، فقد فعلوها سابقا وقصفوا مستشفى الوفاء في حرب 2014.

لم يستطع الطبيب ناصر العودة لبيته ولا حتى مغادرة المستشفى، فبعد أن حل المساء، كانت الفاجعة الكبرى التي أذهلت جميع من في المستشفى، بل جميع من في العالم.

وذلك عندما دخلت عليه أم أويس وهي تبكي وتهتف بحسبنا الله ونعم الوكيل وعلامات الجزع على وجهها، وأخبرت الطبيب ناصر بالفاجعة التي حدثت في حي الزيتون (جنوبي قطاع غزة)

لقد فعل الاحتلال الجريمة التي توقعها الجميع ،وقصف مستشفى مكدس بالجرحى والمصابين والنازحين، وهو مستشفى الأهلي العربي والمعروف باسم المعمداني

(3)

لا أحد كان يتوقع بشاعة ما حدث مساء السابع عشر من أكتوبر، ولا حتى من وقع عليهم القصف، ولم يستطع أحد أن يقدر حجم الكارثة إلا بعدها بساعات وربما أيام، فوقت الصدمة يعجز العقل عن الاستيعاب أو الفهم أو الحصر.

كانت ليلة الثامن عشر من أكتوبر..

- فالليلة تسبق اليوم في الزمن لمن لا يعرف بالمعلومة- واحدة من الليالي شديدة القتامة التي مرت على الناس في المستشفى، ما بين نقل الجرحى والمصابين وإنهاك الطاقم الطبي الذي لا ينام ولا يأخذ دقيقة راحة من كثرة ما يجد من موجات القصف المتتالية، وما تخلفه من جرحى ومصابين بأعداد فاقت قدرات الطاقم الطبي والمتطوعين .

لم يكن الإنهاك النفسي والبدني فحسب، بل هناك جانب آخر من القصة، جانب الخوف المتواري، وهو أن كل العاملين في المستشفى والنازحين اليها تأكدوا بأن النار صارت قريبة منهم، وإن هي إلا مسألة وقت فحسب، حتى يقصف الاحتلال المستشفى كما فعل بغيره بالأمس.

بدأت القصة تتضح وتتكشف مع قدوم عدد كبير من الجرحى

تم نقلهم الى الشفاء بعد قصف المستشفى الأهلي (المعمداني) أقدم مستشفيات القطاع، ومعهم كذلك مرافقيهم والكثير من الصحفيين والمراسلين، فأخذت أجمع خيوطها خيطا خيطا من الأصوات التي تنتشر حولي.

دائما ما يحاول الكبار أن يجنبوا الأطفال سماع الأخبار السيئة، لكنهم ينسون أن الصغار لهم أعين وآذان تسكب فيهم الأخبار والأحداث والفواجع، كيف سيحميه الكبار من القصص المرعبة التي تهز القلوب وتقشعر لها الأبدان عندما يصبح هذا الطفل هو نفسه الخبر والحدث والفاجعة؟!

قبل ثلاثة أيام فقط من الفاجعة، وفي مساء يوم السبت الرابع عشر من أكتوبر في المستشفى الأهلي العربي، أُطلق جيش الاحتلال قذيفتين على مبنى العيادات الخارجية ومركز تشخيص السرطان التابعين للمستشفى، فتسبب بأضرار جسيمة ونشر الفزع بين النازحين الذين يتكدسون بساحة المستشفى هربا من التهديد الدائم بقصف الأحياء الشعبية القديمة في غزة والمكتظة بالسكان، بعد أن تلقوا منشورات وتحذيرات من جيش الاحتلال بقصف الأحياء التي تقع في المربع السكني نفسه للمستشفى، مما جعل الأهالي يفرون إلى ساحاته باعتباره

أكثر الأماكن أمانا، ولا يمكن أن يفكر جنود الاحتلال في ضربه، خاصة بعد الحديث والتصريحات عن عدم تعرضه .

في صباح الأحد.. اتصل الاحتلال بالمدير الطبي للمستشفى يستنكر بقاء المستشفى في العمل، وعدم إخلائه من المرضى والفريق الطبي رغم التحذير بالقصف، وكرر تهديده واصراره على اخلاء المستشفى

وأجرى مدير المستشفى اتصالات عديدة بالمطران والصليب الأحمر، والسفارة الأمريكية، وكان القرار أن المستشفى لن يصيبه أذى، ومن ثم استمر في العمل وتقديم خدماته وعدم الإخلاء

وما زاد من طمأنة الطاقم الطبي أن الاحتلال لن يقدم على قصفه هو أن المستشفى يتبع الكنيسة الأسقفية الأنجليكانية في القدس، فهو أقدم مستشفى في البلدة وتأسس نهاية القرن 19 الميلادي على يد البعثة التبشيرية التابعة لإنجلترا، فما من أحد يتوقع أن تصل عقلية الاحتلال إلى تلك الدرجة من الإجرام.

حتى تبدد وهم الأمان مع صوت الانفجار المريع والتدمير الشنيع مساء يوم السابع عشر من أكتوبر .

ساد الهرج المكان، وفوجئ أطباء المستشفى بدخول الجرحى عليهم في غرف العمليات، وعمت الفوضى كل شيء، ولم يمض وقت طويل

حتى تبين حجم الفاجعة التي أصابت الناس داخل المستشفى وخارجه، فأشلاء الضحايا متناثرة، وأجساد الشهداء تملأ المكان، وإصابات الضحايا مختلطة بالدماء النازفة على الأرض.

في مستشفى الشفاء كان الحديث الدائر بين الطبيب أحمد والطبيب ناصر يصل لأذني وهما يعتنيان بالخدج الآخرين، ويتفقدان أجهزة الأكسجين والمعدات، وبرغم القلق والانفعال كانا يحافظان على انخفاض الصوت ، وكأنما تدربا جيدا على اظهار الثبات الانفعالي في أحلك المواقف وأقصاها صعوبة، فيبدو أن الحياة في غزة لا تمنح البشر وخاصة الأطباء أية فرصة للانهيار أو فقدان الاعصاب.

لا أدري كيف أتحمل كل هذا!! لم يكن ينقصني سوى سعيد يطعمني، لماذا تركاني له واهتما بالخدج الآخرين!! هل لأنني لا أحتاج بعد لجهاز أكسجين؟!! أو لأن طعامي عن طريق المعدة لا الوريد!! هل أكتم أنفاسي أو أتمنى لنفسي المرض وسوء الأحوال ؛ لأحظى بعناية فائقة كتلك التي يقدمانها لخدج آخرين!! أم أبكي وأصرخ طلبا للنجدة من تلك اليدين اليابستين، ربما تأتي أم أويس وتنقذني!

تلك المرة تقبلت قدري بصمت، فقد أثار اهتمامي حديث أحمد مع الطبيب ناصر.

كان أحمد يحكي عما سمعه من الأطباء الذين التقاهم من الذين كابدوا الصدمة وكانوا حاضرين في كارثة المستشفى الأهلي: صرت أخاف أن أتزوج ؛ فأجد نفسي في ذلك الموقف الصعب، طبيب صديق يعمل في المستشفى الأهلي أرسل لي رسالة على الجوال يخبرني بأن أسرته كانت في المستشفى تحت القصف، تركوا البيت ولاذوا بساحة المستشفى بحثا عن الأمان، بعد أن أكد لهم أن الاحتلال مستحيل أن يقصف مؤسسة صحية تابعة للكنيسة، لا أعرف ماذا أقول له؟ وكيف أواسيه بعد أن استشهدت زوجته وطفلته في محل عمله ؟ ، إنه يحمل نفسه الذنب.

– يحتاج لوقت؛ ليستفيق من الصدمة، بعد فترة سيدرك أن ما يحدث هو جريمة من فعل الاحتلال ولا ذنب لأحد من أهل غزة فيها، فنحن نعاني من ذلك الإجرام والعدوان من أكثر من ستة عشر عاما أو يزيد، لكن ما يختلف هذه المرة هو أن المقاومة ترد على العدوان بضربات موجعة وبأسلوب أكثر تطورا وتأثيرا.

– الأمر حقا مريع، فالقنابل التي استخدموها في القصف من نوعية خاصة! الجراحون هنا مندهشون من نوعية الجروح التي وجدوها في المصابين.

قال الطبيب ناصر: بعد كل ما رأيته من حالات الجرحى والمصابين

في السنوات الماضية، وبعد أن قذفونا بالقنابل الفسفورية والأسلحة التي تفتك بالبشر، لم يعد يدهشني شيء.

وبت أصدق بأن غزة ما هي إلا حقل تجارب للأسلحة الأمريكية المحرمة دوليا القديم منها والحديث.

– أنت محق، فالمقصود هو قتل أكبر عدد من الأفراد، فهم يستخدمون سلاحا خاصا يفتك بالضحايا ويقطع أجسادهم، فقد أخبرني طبيب بقسم الجراحة أن الحالات التي نقلت من المستشفى الأهلي مصابة بجروح قطعية، وكأن القنبلة التي استخدمت بها سكاكين انفجرت في الناس، وقطعت أجسادهم وأطرافهم.

– كل قذيفة يلقونها مدروسة بعناية، ومتخصصة بنوع معين من الإصابات، هذا ما خبرته وعاينته من الحروب السابقة، هؤلاء الوحوش لا يتصرفون إلا بتخطيط إجرامي مسبق، وأستطيع أن أؤكد لك أن هذه القذيفة متخصصة في مثل هذه الإصابات من دون حتى أن أراها.

انتفض جسدي، فقد أفزعه صوت سعيد العالي وهو يقول: سمعت أنهم لازالوا يجدون جثث الشهداء متناثرة في أماكن لا يتوقعها أحد.

قال الطبيب ناصر آمرا: هشت.. أخفض صوتك حتى لا تفزع الصغار.

أخيرا تركني سعيد أرتاح من كفيه، وانضم لهما وهو يقول باهتمام:

القنابل التي ألقوها على المستشفى بشعة، لقد أطاحت بجثث الشهداء لمسافة بعيدة، وسائل الإعلام على الانترنت تقول أنهم وجدوا جثة طفل فوق أحد الأسطح وجثة طفل آخر في الكنيسة الموجودة داخل المستشفى، ورؤوس أطفال فوق المباني المحيطة.

رفع الطبيب كفه في وجهه: اهدأ، فالانفعال يزعج الاطفال، عملنا هنا في هذا القسم دقيق وحساس، فالأصوات العالية قد تصيب الأطفال بالفزع، وهذا قد يؤثر بالسلب على القلب والنبض، لا نريد لأحد الأطفال آن يدخل في مشكلة قلبية.

رفع سعيد حاجبيه دهشة وأخذ ينظر لهما، ثم قال: هل صوتي هو ما سيسبب الأذى للصغار المرضى! ماذا لو تم القصف على المستشفى وسمعوا صوت القنابل فوقهم!

هز الطبيب ناصر رأسه بأسف وغادر القسم وتبعه أحمد ؛ليبحث عن أم أويس التي تجيد التفاهم مع ذلك الشاب الغر وتعليمه واجباته.

وأخيرا عادت أم أويس، فبادرها سعيد قائلا: أين كنت؟! قالت: كنت أسجل بيانات الحالات الجديدة، وأسجل إذن خروج للحالات التي استلمها ذووهم.

كان يبدو عليه القلق فسألته: هل هناك مشكلة؟

قال – بأسف –: أخشى أن يفقد الطبيب ناصر صبره ويطردني.

قالت لا تقلق، لن يفعل هو يقدر أنك لازلت تتدرب وتنقصك الخبرة، كلنا كذلك في البدايات، ستتعلم مع التدريب وتصبح أكثر مهارة.

أومأ برأسه، ثم سألها: وكيف الحال بالخارج؟

الطوارئ امتلأت والجرحى يفترشون الطرقات، حسبنا الله ونعم الوكيل.

لكن ما أحزنني هو تلك الطفلة سوار طوطح.

قال: عرفت قصتها من وسائل التواصل، فصورتها انتشرت بشكل كبير، أحد الصحفيين صورها وهي تمسك بقطعة خبز وعملة معدنية، فأثارت تعاطف العالم.

– ترى ما هي درجة التعاطف المطلوبة مع الرؤوس المقطوعة والأشلاء الممزقة حتى يطالب العالم بتوقف الحرب!!

قالت: لم أعد أثق بتحرك أي جهة أو أي دولة، فالعالم صار بلا قلب أو ضمير، حتى الهيئات الدولية بدأت أشك في نواياها، وأظن أنها مخترقة وموجهة.

قال: الناس بالخارج لا يثقون الا بالمقاومة، هل رأيت كيف يفرحون ويتحمسون عندما يظهر أبو عبيدة في كل خطاب من خطاباته.

قالت – بقلق– : بت أربط بين كل خطاب له والفُجر في القصف والوحشية في القتل، وكأن صوته يصيبهم بالجنون فينتقمون في المدنيين، إن كل ما يشغلني الآن هو متى وكيف سيتوقف كل هذا؟!

لم تنتظر منه إجابة على سؤال لا إجابة له، بل سألته: وماذا تقول أيضا وسائل التواصل والمواقع الاخبارية؟

قال وقد حمسه اهتمامها بكلامه: تقول إن..

رفعت سبابتها على فمها: هشت، تعلم أن الطبيب ناصر لا يحب الصوت العالي داخل الحضانة.

هز رأسه بخجل وخفض صوته: وسائل التواصل مشتعلة بالغضب بعد أن كذبت اسرائيل علنا ، وادعت أن الانفجار الذي حدث بالمستشفى الأهلي سببه صاروخ فلسطيني أطلقته المقاومة بطريق الخطأ.

تجهم وجهها وقالت: يا للإفك المبين، إنهم يكذبون كما يتنفسون.

قال: بل ويقللون من أعداد الشهداء والمصابين، ويدعون أنها أقل من ثلاثمئة، وأمريكا تنشر ذلك.

– أمريكا تتبنى الرواية الاسرائيلية على كل وجه وإلى مالا نهاية، فإسرائيل هي طفلتهم المدللة، واللوبي الصهيوني في أمريكا يحكم قبضته

على كل السياسيين والأحزاب التي تتنافس على الانتخابات، تكفي فضيحتهم بخروج رئيسهم يكذب على الهواء.

– كان يدعي كذبا في المؤتمر الصحفي أن المقاومة تقطع رؤوس الأطفال الرضع، وأنه شاهد صور أربعين رضيعاً مقطوعي الرأس في المستوطنات، ثم صار الأمر فضيحة عالمية بعد أن ثبت كذبه.

– إنه يكذب على شعبه وهم يصدقون، ويتعامون عن رؤية الدماء وأشلاء الأطفال التي تملأ الشاشات ليل نهار عبر الفضائيات .

وزارة الصحة أعلنت أن أعداد الشهداء في المعمداني فاق الخمسمئة، إن من يصدق القاتل ويهمل كلام الضحية فاقد لضميره معدوم الانسانية، ولا ينتظر منه شيء.

– هيومن رايتس وواتش، تبنت وجهة النظر الإسرائيلية والأمريكية ونشرت ما قالوه.

– كما أخبرتك بت أرتاب في تلك الجهات الدولية وأشك في نواياها ومقاصدها، فما فعلوه مع مستشفى المعمداني يشي بتواطؤ مفضوح، أو حتى تخاذل مهين .

– تلك الحرب مختلفة هذه المرة في كل شيء، ومفاجآتها لا تنتهي، أسأل الله أن ينصر المقاومة ويثبت أقدامهم.

الطبيب أحمد يخشى أن يتزوج، وتكون له أسرة؛ فيفجع بفقدهم كما حدث لزميله في المستشفى الأهلي، والطبيب ناصر يريد أن يتفقد عائلته ويطمئن عليهم، لكنه لا يستطيع ترك موقعه في المستشفى والمرضى بحاجة اليه.

وأنا أتساءل أين أمي ومتى سأراها؟!

حقا ما أسوأ أن تولد في غزة، لا أظنني أتحمل أن أنتظر حتى أكبر وأخرج من هذا الجحيم، بمجرد أن تأتي أمي سأقلب حياتها إزعاجا وصراخا حتى تأخذني وتخرج من تلك البلدة الخطرة.

(4)

في الأيام التالية لم يتوقف القصف في أي بقعة من بقاع الأرض، وكلمة قصف في حد ذاتها صارت مرعبة، فهي تعني أن الازدحام يقترب، والضوضاء تكثر وتنتشر وربما قد أجد يوما اثنين أو ثلاثة أطفال مصابين يزاحمونني في نفس الحضانة بسبب عدم توفر أماكن لهم في المستشفى بعد أن افترش الجرحى الأرض ولم يعد هناك سنتيمتر شاغر في قسم الطوارئ أو غيره..

أدركت أن وجود أمي ضروريا، فعلي أن أخرج من هنا بأي ثمن قبل أن أغرق في زحام من الجرحى والدماء والأشلاء.

كما أن كل شيء من أدوات وعقاقير ومستلزمات العلاج في المستشفى يشح بشكل مخيف، ولا يكفي لإمداد الكثير من المصابين بما يساعدهم على البقاء أحياء.

وكلمة السر في ذلك الخراب هو الحصار، والطاقم الطبي في حالة صبر وثبات مذهل، مما يجعل الجميع يتساءلون عن نوع العقار الذي يتناولونه؛ ليمدهم بهذا الثبات.

ربما ليس عقاراً بقدر ما هو طبيعة الحياة على أرض من يسكنون باطنها أضعاف من يعيشون فوقها، فعائلات كاملة ينزل عليهم

القصف فتنطبق عليهم الأسقف والجدران وتمحو ذكرهم من الوجود، والطائرات لا تكف عن القصف ليلا أو نهارا وكل من يعملون في المجال الطبي والدفاع المدني لا يستطيعون التوقف ؛ لنيل بعض الراحة أو لحظات من اطباق الجفون، أو تناول شيء من طعام.

أضف لتلك الكوارث انقطاع الكهرباء كل عدة ساعات

في الثاني والعشرين من أكتوبر..

صار كل شيء معتاداً، والأيام متشابهة في الأحداث، إلا من تضاعف أعداد البشر في المستشفى، فكلما تم قصف حي من الأحياء؛ يزحف الناس الى المستشفى – خاصة من أحياء شمال القطاع الذي يتم تدميره بشكل متسارع– يملؤون ساحاتها ويزاحمون المرضى في الطرقات والأقسام، وإدارة المستشفى ما كانت لتطلب منهم الخروج أو المغادرة، فقد لجأوا للمؤسسة الطبية طلبا للأمان بما لها من حصانة دولية ضد القصف أو الأعمال العسكرية، هل يصدقون ذلك حقا أم أنها المحاولة الأخيرة للبقاء أحياء!

لكن بعد فترة بدأت تظهر بعض الأشياء التي تسعدني، وألاحظ تغيير ما في إيقاع الأحداث المتوالية بسرعة مخيفة، فقد انتشرت رائحة عطرة من حولي في المكان، وعقلي يتساءل من أين تأتي، وأنتظر إجابة من أحد الكبار.

وفي كل يوم في ساعة من نهار تصل لأذني أصوات قادمة من ساحة المستشفى الخارجية، أغاني وتصفيق ومرح أطفال.

ولم يمض وقت طويل حتى عرفت من أم أويس وهي تتحدث مع سعيد وتمدح هؤلاء الشباب الذين يجمعون الأطفال في ساحة المستشفى، ويسعدونهم بعمل حفلات أطفال مرحة سريعة وهم يرتدون زي المهرجين ويقومون بفقرات مضحكة ويبثون أغاني الأطفال المرحة عبر سماعات كبيرة.

كانت نفسي تتوق للانضمام لتلك الحفلات المرحة التي تسعد أي طفل، وأخذت أفكر، متى أكبر ؛ لأرى الجانب الجميل المرح من الحياة، فمن يوم مولدي ولم أر من الحياة سوى وجهها القبيح المريع.

صار انتشار الرائحة الجميلة يتكرر يوميا في أوقات منتظمة وخاصة عندما تقوم أم أويس بتغيير حفاضات طفل الحضانة المجاورة لي، حتى عرفت يوما سر الرائحة الجميلة، عندما كانت أم أويس تقف مع إحدى الأمهات – والتي على ما يبدو أم الطفل في الحضانة المجاورة– والرائحة تصل لأنفي بشكل قوي، فأخذت أتسمع لحديثهما، كانت الأم تتحدث عن ابنتيها التوأم الخديجتين جوري وياسمين، وتوصي بهما أم أويس وتعطيها حقيبة تمتلئ بالحفاضات، وأم أويس تطمئنها بأن كل طفل هنا ترعاه وتعتني به كما لو كان ابن لها.

بمجرد أن فتحت أم أويس حقيبة الحفاضات أدركت أنها مصدر الرائحة التي تداعب أنفي منذ فترة، ما أجمل الأم التي تدلل أطفالها، وتهتم بكل تفاصيلهم حتى أنها تختار لهم نوعية حفاضات معطرة.

عندما أكبر؛ سأدير مصنعا للحفاضات المعطرة، هذا إن أفلت من الموت المنتشر بشراسة تلك الأيام.

ترى كيف هي أمي؟ وماذا ستفعل معي عندما تأتي لتأخذني من الحضانة؟! وأي نوع من الحفاضات ستشتري لي؟! الحياة مع أم تحبك وتدللك تساوي العالم بأسره.

بعد فترة أدركت من حديث أم أويس مع الطبيب ناصر أن صاحبة الحفاضات المعطرة التي تسكن الحضانة المجاورة حالتها ليست مستقرة ووزنها قليل جدا ويجب أن تبقى على جهاز التنفس الصناعي.

كان يوصيها بمراقبة أجهزة تتبع التنفس وعدد ضربات القلب ومستوى الأكسجين في الدم، فحالة الطفلة حرجة، وعليها أن تبلغه على الفور إذا ما تعطل أحد الأجهزة أو انقطعت الكهرباء.

رحل الطبيب وبقيت أم أويس تحوقل، والعم أبو خالد يقوم بعمله في توقيته المعتاد ؛ لتنظيف المكان.

أخذت ترتب الأدوات وتضبط الأجهزة وهي تقول- بأسف- : لا أفهم أي وحشية تلك التي تمنع الحياة عن هؤلاء الملائكة الذين لا ذنب

لهم! إن كانوا يريدون انتقاما ؛ فليصدوا ضربات المقاومة التي أوجعتهم، ماذا أقول سوى جيش التفاهة يحارب خدج، حسبنا الله ونعم الوكيل

قال العم أبو خالد: هذا ما يفعلونه في كل مرة، المقاومة توجعهم فيضربون المدنيين العزل والأطفال، هم جبناء لا يقدرون على مواجهة الرجال كما أخبرنا ربنا جل وعلا في القرآن ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14].

قالت بضيق: لا يقدرون على القتال رجل لرجل فيستخدمون منع الوقود والحصار للضغط علينا ؛ لتسليم المقاومة، هل قرأت آخر منشوراتهم الخبيثة؟! يرصدون المكافئات لمن يبلغ عن أماكن قادة المقاومة، يظنون أن باغتيالهم سيقضون على المقاومة.

هتف - بتهكم-: فليخسئوا، فلن يصلوا إليهم، المقاومة ليست فرداَ، بل هي شعب بأكمله، إن ذهبت المقاومة ؛ فسيخرج من بين شبابنا وأبنائنا غيرها.

قالت: إن ما يؤلمني حقا هو قطع الكهرباء عن هؤلاء الصغار، يتفطر قلبي عند رؤية أحدهم يرتجف من البرد ، أو يدخل في أزمة نقص أكسجين.

قال -والذكريات تتداعى لرأسه-: ليس بجديد هنا، الأمر يتكرر

منذ عشرين عاما[1]، كنت أعمل هنا متطوعا في حرب 2008، رأيت الحضانات تتحول إلى أسرّة موت بطيء يلفظ فيها الصغار أنفاسهم الأخيرة، نتيجة توقف ما بها من مضخات أوكسجين ،وأجهزة طبية أخرى عن العمل بفعل توقف المولدات وانقطاع الكهرباء ونقص الاكسجين، والأطباء عاجزون عن إسعافهم.

لم يكن هذا القسم وحده هو الذي يعاني، بل كل الأقسام، فأجهزة غسيل الكلى توقفت في قسم الكلى، وقسم القلب كذلك، وفقد مرضى السرطان حياتهم بسبب عدم دخول العلاج للحصار، وصار عداد الموت يعمل بسرعة، والناس يموتون من قلة العلاج

بعد أن قررت قوات الاحتلال قتلهم واحدا تلو الآخر بالحصار

تنهدت بأسى: متى يأتي اليوم الذي نتخلص فيه من الاحتلال والحصار؟!

قال -بأمل- : عسى أن يكون قريبا.

في الرابع والعشرين من أكتوبر..

كانت أصوات الغارات تقترب، وبت أسمعها أكثر وضوحا، فسماء

(1) في 2018: من 5 إلى 10 أطفال من حديثي الولادة يتوفون شهريّا بغزة بسبب الحصار ونقص الأدوية والمعدات والأجهزة الطبية.

مدينة غزة صارت مرتعا للطائرات الاسرائيلية، ولا مكان آمن من الغارات في أي شبر فيها، هنا يتوقع الناس الموت في كل لحظة، حتى سعيد يشعر بأن الموت يدنو منه ومن مخطوبته ريم، فلم يكد يعقد قرانه عليها حتى قامت الحرب، لا عجب من هدوئي وأنا أحكي عن الحرب، فأيامي على الأرض معدودة لم أحب بعد شيئا فيها ؛ لأتمسك به وأخاف عليه، كما أن مشاعر الخوف لازالت غير مفهومة بالنسبة لخديج مثلي، ربما لتأخر اكتمال الأجهزة لدي يبدو أنني سأحب سعيد هذا، لأول مرة أشعر بأنه كائن لطيف، وله مشاعر عندما استغل فرصة عودة شبكة الاتصالات بمعجزة، وأثناء تواجده ليلا معنا وحده اتصل بمخطوبته ريم؛ ليطمئن عليها، وفتح مكبر الصوت في الجوال، فصرت أسمعه وأسمعها، وأخذ يبث لها أشواقه ، ويعبر لها عن مشاعره الجياشة على مؤثرات صوتية للزنانات التي تنتشر في سماء القطاع ليلا ونهارا وكثير من أصوات الانفجارات هنا وهناك: كيف لي أن أصبر؟! تعلمين كم بذلت من جهد ؛ لأقنع والدك أن يتم زواجنا المحدد له هذا الشهر، لولا الحرب؛ لكنا الآن في بيتنا.

تنهدت بأسى: حسبي الله على اليهود، ما تركوا شيء إلا ودمروه، أفسدوا حياتنا وفرحتنا

قال ضائقا: فلتحرقهم المقاومة بنيرانها، لكنني لن أغير الموعد حتى لو أخذتك من بيت أبيك دون حفل زفاف، أريد أن أشعر أنني صرت زوجا ورب بيت وأسرة، أتمنى أن يجمعنا بيتنا قبل أن يقصفه اليهود.

قالت- معترضة- : كيف نتزوج في الحرب؟! بل كيف ستتزوج وأنت في عملك في المستشفى طوارئ ليل نهار؟!

قال: لا شأن لك بعملي، سأجد له الحلول.

قالت: إذا فقد حكمت علي أن لا أخلع ملابس الصلاة ليلا أو نهارا في البيت، متى إذا سأرتدي الثياب التي اشتريتها؟!!

قال: لا أهتم، اكتفيت من الحياة بك، لقد طليت جدران غرفة النوم باللون الذي تحبينه.

أتاني صوتها اللطيف وهي تقول برقة: أحببت ذلك منك، لقد تنازلت عن اختيارك للون الذي تحبه أنت لأجلي.

قال بصوت يمتلئ بالمشاعر: اكتشفت أنني حمار.

هتفت - بتحفز- : ماذا تعني!!

تدارك بارتباك: لا.. لا أقصد، أعني أنني كنت حمارا ؛ لأنني عارضتك في البداية، ثم اكتشفت أن اللون الذي اخترته أنت هو الأجمل، لقد أضفى حياة وبهجة على الغرفة، ومتناسق مع ألوان الأثاث.

قالت: لقد اخترت أثاث الغرف بعيني وقلبي قطعة قطعة.

قال: وهذا أجمل ما فيه، هو بيت أسس بالحب، وأثاثه يحمل الكثير من جمال قلبك وعينيك.

لم ترد على كلماته، فابتسم: أتمنى رؤية وجهك الآن، خداكِ يتوردان خجلا وعيناكِ تلمعان، أنا متأكد.

سعيد وعروسه الرقيقة هما نموذج لقصة حب عطلتها الحرب

إنها قصة حزينة تتكرر كثيرا في غزة.

لم يكد سعيد يغلق الهاتف حتى تفجر الوضع من جديد، وكالعادة غارات مكثفة يطلقون عليها حزام ناري على أحد الأحياء، وبعد أن تنتهي تعمل فرق الدفاع المدني على البحث تحت الأنقاض عن ناجين، وتصرخ سيارات الاسعاف بصوتها المميز حيث تنتشل ما تيسر الوصول لهم من المصابين والجرحى، وتحملهم للمستشفيات التي تكدست ولم يعد بها مكان ولا مستلزمات للعلاج أو الاسعاف، هكذا يقضي الجميع ليلتهم في المستشفى.

بل كل ليلة وكل نهار عذاب لا ينتهي الا بانتهاء الحرب، والانتقال لمرحلة كيف سنرمم ونعالج ونداوي؟!

في اليوم التالي.. الخامس والعشرين من شهر أكتوبر.

عقد مدير المستشفى الطبيب محمد مؤتمرًا صحفيا يشرح للصحفيين الوضع الذي آل إليه حال المستشفى.

وهو باختصار: مئتي شهيد خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، ولم تصل للمستشفى أية مساعدات، أو مستلزمات طبية رغم الاتصالات والمناشدات التي قامت بها إدارة المستشفى لجهات عدة كالصليب الاحمر ومنظمة أطباء بلا حدود والحكومة المصرية ومؤسسات الغوث الدولية.

لقد امتلأت المستشفى عن آخرها بالجرحى والمصابين، والأطباء والجراحون وطاقم التمريض عددهم أقل بكثير جدا من عدد الجرحى، فصاروا يضطرون للمفاضلة بين الجرحى حسب حالتهم

الوقود اللازم لتشغيل مولدات المستشفى على وشك النفاذ، وهذا يعرض عدداً كبيراً من المرضى في الرعاة المركزة وحتى الخدج في الحضانات إلى خطر كبير، وقد يفقدون حياتهم؛ لتوقف أجهزة الأكسجين وأجهزة التدفئة.

عندما تكون طفلا خديجا بحاجة لجهاز حضانة يحافظ على حياتك؛ ستشعر بما أشعر به الآن من خوف وهلع وأنت ترى الموت يقترب من 39

طفلا بعضهم يحتاج الى اكسجين بسبب عدم اكتمال نمو الرئة ومشكلات التنفس، والكثير-ومنهم أنا- يحتاج لتدفئة ، لعدم قدرة الجسد على ضبط درجة حرارته، وغذاء لعدم استطاعته تناول الغذاء بشكل طبيعي.

في المساء قام بعض الشباب بتركيب شاشة كبيرة في ساحة المستشفى؛ خدمة لعائلات النازحين الذين اتخذوا من ساحة المستشفى ملاذا ؛ ليسمعوا ويشاهدوا خطابات الملثم بالكوفية الحمراء والعصابة الخضراء، لم أكن أعرفه - فأنا حديث على هذه الأرض كما تعرفون- وسرعان ما فهمت أنه هنا نجم محبوب وسوبر هيرو، في عدة أيام قليلة انتشر صوته وصورته عبر القنوات الفضائية العربية، فأصبح في العالم أشهر من نجوم هوليوود وبوليوود وفريق BTS الكوري.

إنه أبو عبيدة الذي يترقب كل من في غزة طلته على الشاشة، ويستمعون لخطاباته بإنصات، وبمجرد أن يختم كلمته حتى تنفجر الجماهير بالتصفيق والهتاف والصفير المشجع والمؤيد، ثم تشتعل ساحات المستشفى بالهتافات (حط السيف قبال السيف، إحنا رجال محمد ضيف).

ويبقي الحديث دائرًا عن المقاومة وأبي عبيدة لفترة طويلة، وكأن الناس تجد في الحديث عنهم سلوى وطمأنينة وأمل بالنصر المنشود.

في اليوم السابع والعشرين..

استطاع أحمد أن يصل إلى أحد المراسلين بقناة إخبارية شهيرة وأقنعه بعمل تحقيق صحفي مع الطبيب ناصر رئيس القسم؛ ليشرح للعالم أوضاع القسم والخطورة التي تهدد حياتنا، ويكون صوت للخدج إلى العالم، أسعدني ذلك الاهتمام كثيرا، فهنا بشر يقدرون حياة الأطفال ويقاتلون من أجل أن نبقى أحياء،وهم صوت لنا يوصل صرخاتنا للعالم.

ورحب الطبيب ناصر بالفكرة، وفي الموعد المحدد استقبل المراسل عامر ومعه مصور القناة، وبدأ يتجول معه داخل القسم ويريه الأجهزة المعطلة والأجهزة التي تعمل بالتبادل مع غيرها لانقطاع الكهرباء المتكرر، والمصور يصور القسم والاطفال وكل شيء، أعجبني منظره والكاميرا التي يستخدمها في عمله الشائق، أتمنى حقا أن أصير مراسلاً صحفياً أو مصور عندما أكبر.

مر الثلاثة من أمامي، فأخذت أتحرك حركات عشوائية لعلهم ينتبهون لي ويتحدث عني الطبيب ناصر أمام الكاميرا، لكنه تجاوزني وأشار إلى الحضانة التي بجواري وقال للمراسل: تلك الطفلة اسمها ياسمين، ولها أخت توأم معنا هنا أيضا وبرغم أن أختها حالتها أفضل وتتحسن وتستجيب وتتنفس بطريقة طبيعية، ، لكنها لم تخرج من

المستشفى بسبب الحرب، فقد انقطعت السبل بيننا وبين أمهما، ولا نعرف متى ستعود ؛ لتأخذ طفلتها الرضيعة وتطمئن على الأخرى الخديجة، أما ياسمين فهي لا تستطيع التنفس من دون جهاز تنفس اصطناعي فلديها مشاكل بالرئة، كما أنها تتغذى عن طريق الوريد.

لا أصدق أن صاحبة الحفاضات المعطرة سرقت مني اللقطة وباتت هي في قلب الكاميرا وستخرج صورتها على القنوات الفضائية حتى لو لازالت عيناها مغمضتين، إنها ذكرى رائعة لأي طفل أن يظهر على شاشة التلفاز ويراه العالم، وسيفتخر بها عندما يكبر، أخذت أتحرك بعصبية عشوائية، وعندما لم يلتفتوا لي؛ جربت حيلة أخرى وهي البكاء، وكنت متأكد أن الطبيب ناصر سيسمعني برغم صوتي الضعيف كما يفعل دائما، وسيمنحني الاهتمام الذي أريد.

اقترب مني ونظر لي من خلال الزجاج وهو يبتسم بحنان، وقال للمراسل: وهذا الجميل الصغير أخذ من قلبي مكانا، وأحبه كولدي، لقد اجتذب الحب والحنان ليس فقط مني، بل من كل العاملين هنا بسبب ظروف ولادته المأساوية.

كانت المرة الأولى التي يتحدث فيها عن ظروف ولادتي ويصفها بالمأساوية فانتبهت جيدا لكلماته وتوقفت عن البكاء، وأصغيت إليه:

هذا الطفل تم قصف الحي الذي فيه بيته، وتم إخراج أمه من تحت الأنقاض وهي مصابة في رأسها، وأجريت لها عملية قيصرية، وللأسف استشهدت ولا معلومات أخرى عنها، وتم تحويل الطفل إلى مستشفى الشفاء قسم الحضانات، وهو الآن يتيم، ولا نعرف أب له ولا أهل ولا اخوة أو أخوات ولا أقارب، ولا يوجد أحد يعرفه؛ ليختار له اسما؛ لذلك فنحن جميعا في القسم نعامله معاملة خاصة ونعتبره ابناً لنا.

كان تلك هي المرة الأولى التي أصدم فيها بمعرفة الحقيقة المأساوية الكاملة عن يوم مولدي ؛ اذ يبدو أنه كان يوماً مشئوماً على كل أهلي وأقاربي، فبينما أنا أركب قطار الحياة القادم إلى غزة؛ كانوا هم يركبون معراجا إلى السماء بتذكرة ذهاب بلا عودة، وتركوني في الحياة وحيدا بلا أحد يرعاني ولا اسم ينادوني به.

الآن أدركت أنني لا أحد

(5)

عندما أتت أم أويس تعجبت من هدوئي الزائد، وسألت الطبيب أحمد: لماذا لا يبكي كعادته؟!

فحصني الطبيب أحمد جيدا ولم يجد بي بأسا فهز رأسه وقال: إنه بخير، وعلاماته الحيوية جيدة.

برغم أن جسدي كان طبيعياً، لكنني لم أكن بخير أبدا، كان قلبي يتفطر حزنا، وروحي تتقطع غضبا، فليس من السهل على أي انسان أن يجد نفسه فجأة بلا أهل، وحيدا، ضائعا في الحياة، لا أحد يتحمل مسئوليته، وليس له أحد يحبه أو يرعاه.

كل دقيقة تمضي عليَّ بعد هذا الاكتشاف المذهل عن ولادتي المأساوية تُظهر لي مدى خسة وبشاعة الدنيا التي ولدت فيها.

لماذا ولدت في بلدة هرستها الحرب وأحرقت أجمل ما فيها!! وملايين الأطفال يولدون في بلدان أخرى بلا يتم ولا معاناة ولا فقد ولا حرب ولا صواريخ تلقى فوق البيوت الآمنة وتمحو عائلات كاملة من السجل المدني بلا حتى شهادات وفاة.

لماذا أنا من دون كل المواليد؟! أي ذنب ارتكبته؛ لأتعرض لهذا المصير وأولد في غزة!

وكأن الحياة في غزة ينقصها مصائب جديدةٌ وكأن الاحتلال لم يكتفي من دماء أمي وعائلتي! وكأن سماء غزة لا تكفي ساديتهم في التدمير، فضموا إليها الأرض أيضا.

مساء يوم 27 أكتوبر، انتقل جيش الاحتلال الإسرائيلي فعليا إلى المرحلة الثانية من الحرب -كما كان يقول في تصريحاته- بالهجوم البري على بيت حانون والبريج ، وأعلنت المقاومة على لسان متحدثها الرسمي أنها تنتظر تلك الخطوة؛ لتري العدو بأسها الشديد.

يبدأ الهجوم البري بقطع الانترنت وشبكات الاتصالات عن كل شبر في القطاع، ثم تهجم الطائرات بسلسلة غارات وحزام ناري؛ لحرق الأرض قبل توغل القوات البرية، وذلك لتأمينها من أي هجوم على الأرض.

لكن ذلك يعني مزيداً من الدماء، ومزيداً من قتل الأمهات، ومزيداً من أطفال بلا أهل، وأجنة تغلق أبواب الحياة في وجوههم من قبل حتى أن يطرقوها.

تلك الليلة.. كانت الأشد سوادا وقتامة في كل الليالي التي مرت علي منذ أن ماتت أمي التي لم أرها، أعني.. منذ أن ولدت، ففي تلك الليلة كابدت - فزعاً- أن تكون القنابل والقصف قريبة جدا من المحيط الذي أرقد فيه، فأشد ما يفزع الصغار أصوات الانفجارات، فقد قصفت

القوات النازية- أقصد قوات الاحتلال - محيط المستشفى، وعند لحظات كتلك تشعر بأنك في قلب الهلاك المحتم، وأن الساعة قد قامت.

الكل يفزع الى مكان آمن والهرج ينتشر بين الجميع، لن تستطيع أن تتخيل المشهد من فرط قسوته، آلاف النازحين يفرون مهرولين من ساحة المستشفى الخارجية إلى داخل المباني، يتدافعون برعب هائل لا يعرفون إلى أين يذهبون ولازالت صور مذبحة المستشفى المعمداني قابعة في الذاكرة القريبة، والمصابين القادمين منها لازالوا يعالجون داخل مستشفى الشفاء، وبقى الجميع مستيقظين مترقبين توقف القصف ومطلع الفجر.

في الثامن والعشرين من أكتوبر..

لم تكن الأحوال بأفضل من أمس، بل أسوأ، وتصريحات جيش الاحتلال تقول إن قواته على الأرض في غزة ستتوسع في العمليات البرية، وذلك بعد أن أعلن رئيس وزراء دولة الاحتلال بنيامين نتنياهو بأن المرحلة الثانية من الحرب قد بدأت، وأصدر تحذيرات مستمرة للسكان المدنيين بإخلاء منطقة الشمال.

وفي مساء ذلك اليوم، تعرضت ساحات المستشفى الخارجية إلى قصف مدفعي مكثف، وعاش كل من فيها ليلة شديدة الرعب تماما كالأمس

وربما أشد، مع ذلك العدد المهول الذي يصل إلى عشرات الآلاف من النازحين والجرحى والأطقم الطبية، والجميع متكدسون داخل الأقسام وتكاد الجدران تنطبق علينا من قوة القصف وصوت المدفعية والزنانات ولا أحد يستطيع الاقتراب من نافذة وإلا قنصته الكواد كابتر.

بمجرد أن طلع نهار التاسع والعشرين من أكتوبر حتى وصل للمستشفى عدد كبير من المصابين والجرحى من قصف المنازل والمباني في أرجاء القطاع، لم يعد مهم المكان، فالكل تحت القصف.

وفي الثلاثين من أكتوبر بات لدى جميع من في المستشفى يقين بأن مستشفى الشفاء صارت تحت الحصار المباشر لجيش الاحتلال، وهذا هو ما كان يقلق الجميع، فما يبيتونه للمستشفى ولمن فيه لا يبشر بأي خير، فالجميع قلقون من الغدر المتوقع والمتوارث جيلا بعد جيل من قوم دأبوا على قتل الأنبياء والصالحين حيث يمكنهم ارتكاب مذبحة في المستشفى تفني عشرات الآلاف في لحظة، ولن يردعهم أحد.

فأمريكا قد وضعت حاملتي طائرات في مياه البحر المتوسط بالقرب من إسرائيل، وهي تمدها بالأسلحة الفتاكة يوميا، وترفع الفيتو في وجه مجلس الأمن ضد أي قرار يتفق عليه كل الأعضاء؛ لوقف اطلاق النار.

غزة الآن تحت القصف وحدها تباد والعالم كله يتفرج وأنا هنا

على هذه الأرض فقط، أنتظر الصاروخ الذي سيحملني بعيدا لأمي، وأخرج لساني لتلك الأرض المليئة بالحمقى غير آسف على شيء فيها.

قد لا ترتكب إسرائيل المذبحة مباشرة كما فعلت بالمستشفى الأهلي، ربما تغير الاستراتيجية ،وترتكبها على مراحل وببطء، وهذا هو المرعب في الأمر.

وحتى نفهم ذلك التوجس والرعب الذي يغشى الناس في مجمع الشفاء فلنرجع إلى عدة أيام مضت ونستمع لتصريحات المتحدث العسكري لجيش الاحتلال لوسائل الإعلام ، والتي يدعي فيها بأن أسفل مستشفى الشفاء توجد أنفاق تستخدمها المقاومة؛ لشن هجمات عسكرية وأن القيادة المركزية لحركة حماس موجودة أسفل مستشفى الشفاء.

واليوم يكرر جيش الاحتلال نفس الادعاء بأن المقاومة تستخدم أنفاقا تحت المستشفى وربما تخفي بها محتجزين إسرائيلين ممن أسرتهم المقاومة.

إذا فهناك خطة واضحة يدبرونها للمستشفى.

في الأول من نوفمبر..

استغل مدير المستشفى عودة الانترنت وشبكات الاتصالات؛ ليجري اتصالات بالصليب الأحمر والهيئات الدولية يستغيث بهم ويشرح الوضع الكارثي الذي آلت اليه الأمور في المستشفى ،واتصل

كذلك بالقنوات الفضائية؛ ليستغيث بالعالم لعل أحد يتحرك ويوقف الكارثة قبل أن تقع ويفك الحصار عن المستشفى، أو يتدخل لإدخال الوقود للمستشفى.

فلم يتبق سوى عدة ساعات ويتوقف عمل مولد الكهرباء بالمستشفى بسبب النقص الحاد في الوقود، مما يعنى توقف أجهزة الاكسجين في أقسام الرعاية المركزة وأجهزة غسيل الكلى والحضانات، مما يعنى موت محتم، والحكم بالإعدام على كثير من المرضى والجرحى والأطفال الخدج.

وأخذ يناشد العالم عبر القنوات الفضائية ؛ لإمداد المستشفى بالوقود لإنقاذ حياة المرضى والخدج، لكن لم يهتم العالم ببضعة ديدان صغيرة ببشرة زرقاء تتلوي أجسادهم بعشوائية، وسيموتون خلال وقت قصير؛ ليرتاح العالم منهم ويكف عن استشعار الذنب تجاههم.

وكما سمعت من العم أبي خالد، فالعالم والمنظمات الدولية لم تهتم لأمر الخدج الذين ماتوا خلال 16 سنة من جراء الحصار الغاشم، حتى يهتم ببضع وثلاثين خديج تحت نيران الحرب والحصار!!

في الثاني من نوفمبر..

أصدر مدير المستشفى بيانا مقتضبا لوسائل الإعلام يعلن فيه عن

توقف المولد الرئيس للمستشفى، والاعتماد فقط على المولد الثانوي، ويحذر من كارثة إنسانية لو لم يتدخل العالم لإدخال الوقود للمستشفى.

لم تفلح محاولات مدير المستشفى، ولم يجد نفعا كل ما يفعله من مناشدات للهيئات الدولية والإغاثية ولا حديثه لوسائل الاعلام العربية والعالمية، وبقي الوضع كما هو بل، ويزداد سوءاً كل ساعة، ولا امل في ادخال وقود ولا فك الحصار ولا حتى ردع القوات المعتدية عن ارتكاب أي جريمة، وهذا ما حدث بالفعل.

جريمة مروعة في الثالث من نوفمبر..

أغارت قوات الاحتلال على بوابة مستشفى الشفاء، وفي نفس الوقت قصفت المستشفى الأندونيسي ومستشفى القدس.

كان مدير المستشفى الطبيب محمد قد تواصل مع الهلال الأحمر الفلسطيني؛ ليتم التنسيق من خلاله مع وزارة الصحة في الحكومة المصرية لنقل مصابين من غزة عبر معبر رفح ؛ ليتم علاجهم في المستشفيات المصرية، وبعد موافقة الحكومة المصرية على استقبال عدد من الجرحى والمصابين، تعاون الهلال الأحمر الفلسطيني مع ادارة المستشفى، وتم حمل المصابين في مجموعة من سيارات الاسعاف التابعة لهم، استهدفت غارة جوية إسرائيلية سيارات الإسعاف التي كانت تغادر بوابة المستشفى وفي ساحة الأنصار.

في تلك المذبحة اللا أخلاقية استشهد خمسة عشر شخصًا وأصيب ستين آخرين.

كانت إسرائيل تحاول أن تبرر قصفها الاجرامي لسيارات الاسعاف وهي مركبات محمية بموجب القانون الدولي، فزعمت أن المقاومة كانت تستخدم سيارات الإسعاف، لكن جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني ردت ذلك الادعاء الكاذب ، وصرحت أن إسرائيل قد استهدفت سيارات الإسعاف التابعة للمستشفى سبع مرات سابقة وأودت بحياة 4 من موظفيها.

كان المشهد مروعا وجثث الشهداء ترقد وسط برك من الدماء، مما جعل الناس يهرعون للمساعدة وكان في مكان الحادث أيضًا حصان ميت مربوط بعربة كانت تستخدم لنقل النازحين والمصابين بعد شح الوقود، بالإضافة إلى سيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني ملطخة بالدماء.

تلك الجريمة الصادمة كانت هي الراسخة في عقول الناس والمنتشرة في أحاديثهم، فقد ظهر للجميع أن إسرائيل ليس لديها خطوط حمراء وترتكب كل الجرائم اللا إنسانية تحت ستار من الكذب الفاضح، مما اضطر عشرات الآلاف من النازحين والمرضى للخروج من المستشفى بشكل مأساوي رهيب.

(6)

في لحظة ما حالكة، قد تجد نفسك غير معني بأي شيء يدور حولك، تشعر بفراغ يبتلع كل المشاعر، فتفقد احساسك بالحب والكراهية والسعادة والحزن، وحتى الخوف يتراجع، ولا يتبق سوى اليأس من كل شيء في الحياة.

لم أعد أتساءل لم ولدت في بلد طحنتها حرب ضارية، بل صار سؤالي هو لم ولدت من الأساس؟!

لو كان قدري هو أن أعيش لبضعة أيام على هذه الأرض وتختتم حياتي فيها بمأساة تؤدي لهلاكي، فلم أتيت للحياة وكيف سأكمل حياتي من دون أم؟!!

لماذا تموت الأمهات؟!

نقمتي الشديدة على الحياة أنستني خوفي من الظلام، فلم أعد أخاف من انقطاع الكهرباء، فبداخلي ظلمة حالكة لا يبددها شيء

لم أعد أفزع من صوت القصف ولا أقلق من قذائف الدبابات على المستشفى، لم أعد أريد أي شيء ولا حتى الطعام، صرت هادئا لا مباليا بأي شيء، ولا أبكي لبرد ولا جوع ولا حتى لتغيير الحفاض لم اعد أفكر

في أي شيء ولا أي شخص في هذه الحياة، كل ما أريده هو أن ألتف وأعود من حيث أتيت، فتقليل فترة وجودي على هذه الأرض يعني تقليل فترة الألم والمعاناة والخوف.

لم أعد مهتما بالتفكير في حكاية يومياتي كخديج، أو حتى تذكرها؛ لذلك فكل ما حدث في الأيام التالية لم أهتم به ولا بتاريخه ولا بتفاصيله، فكل الايام صارت متشابهة في الأحداث.

إنها اللحظة التي يتوقف فيها عقل الانسان عن التفكير في الأمس أو الغد، فاليوم يشبه تماما الأمس، وغدا لا أمل أن يأتي بجديد.

فلماذا أحكي يومياتي إن كانت كلها عبارة عن يوم واحد يتكرر؟!!

ما بين حصار شديد الى قصف عنيف على ساحات المستشفى في أي ساعة من ليل أو نهار ، ثم نقل الجرحى والمصابين بالعشرات من كل الأحياء التي تقصف الى المستشفى مع مزيد من النازحين الذين يتوهمون أن المستشفى أأمن من مبنى سكنهم، والحقيقة أنه لم يعد هناك مكان آمن على الاطلاق في أي شبر من غزة.

سماء غزة نهارا مظلمة خانقة ملوثة من دخان القذائف وليلا تتحول إلى قطعة من الجحيم من القنابل المضيئة التي تحدد للطائرات أماكن الاهداف، ثم نيران القصف التي لا تنقطع، والجديد هو القنابل الحارقة

التي تشعل نارا في أي مكان تسقط فيه، نار بشعة لا تنطفئ تأتي على ما تبقى من المباني.

لم تشب النار في مباني غزة فقط، بل اشتعلت أيضا في قلب أم أويس، ملاكي الحارس الذي رزقني الله إياه ؛ ليرعاني في الحضانة، تلك الممرضة الماهرة التي درست وتعلمت؛ لتخفف من معاناة أمثالي من الخدج، القلب الرحيم الذي يطعمني ويرعاني وينظف جسدي دون أن يؤلمني، لها يدان رقيقتان كقلبها الذي احترق بنيران الحرب.

من قلب ظلام القسم كانت تنير لي بمصباح جوالها وهي تلف جسدي بالأغطية ؛ لتدفئ جسدي المرتجف بعد أن توقفت أجهزة التدفئة لنفاد الوقود، ثم صرخت صرخة ملتاعة أفزعتني وانطلقت تجري إلى قسم الطوارئ.

فقد أتاها من يخبرها بأن بيت أختها قصف وولديها مع أختها وأولاد أختها نقلوهم إلى مستشفى الشفاء، فأم أويس لديها ولدان أويس ذو العشر سنوات ،ومصعب سبع سنوات، كانت تتركهما في بيت أختها؛ لترعاهما مع أولادها لأنها لا تستطيع أن تترك المرضى والمصابين والخدج في المستشفى وهم بحاجة ماسة إليها، لكن الاحتلال قصف البيت وهدمه على رؤوس من فيه من نساء وأطفال.

كانت أم أويس تدور بهلع في الطوارئ تبحث عنهم في وجوه مئات الأطفال والنساء الجرحى والمصابين، وتصرخ بأسمائهم ودمعها يغرق الأرض، وعندما وجدتهم ؛انكبت عليهم تبكي وتحوقل وتحسبن وتجأر بالشكوى لله وعقلها يكاد يذهب من قسوة المفاجأة، فقد ذهبت الأرواح الغالية لبارئها تاركة الأجساد متشبثة بأرضها التي يحاول الاحتلال انتزاع حقها منهم، لكن أبت دماؤهم أن تغادر ترابها المقدس، وختمته بختم الملكية الأبدية حتى يوم القيامة.

منذ ذلك اليوم المشئوم، واختفت أم أويس من المستشفى، ولم أسمع أحد داخل القسم يتحدث عنها، فمن كثرة الأهوال التي تتوالى على العاملين في المستشفى والمآسي والكوارث التي يواجهونها، صار كل ملهي بحاله، غارق في مأساته، ينتظر الكارثة التالية، كما أن الاحتلال شدد حصاره على المستشفى فلم يعد أحد يستطيع الدخول أو الخروج.

بالخارج أصوات قذائف ورصاصات وكل من يحاول الخروج يتم قنصه.

هل حقا هذه هي الأرض التي تثير فضول بني البشر ويشتاق كل جنين أن يراها ويعيش فيها فيضرب برجله في جدار الرحم متعجلا الخروج؛ ليحيا في العالم الجديد؟!!

ما أغبى الانسان!!

صارت الحياة في عيني مقيتة، وكل شيء فيها مخيف وكئيب وقاتل بعد اختفاء أم أويس، ورغم عمق المأساة، لكن لم تتوقف المصائب عند هذا الحد، بل انهارت الاوضاع تماما في عدة أيام.

في السادس من نوفمبر..

قام جيش الاحتلال بضرب وتدمير لوحات الطاقة الشمسية على سطح المستشفى، مما تركه يعتمد بشكل كامل على المولدات الاحتياطية التي تعتمد على إمدادات الوقود التي تنفد بسرعة وذلك في ظل الحصار الشامل على غزة.

وفي العاشر من نوفمبر..

قصف جيش الاحتلال المستشفى الذي يأوي عشرات الآلاف من البشر العزل الذين فقدوا كل شيء ولم يجدوا سوى المستشفى ملاذا لهم وأغلبهم من الأطفال والنساء والمرضى والجرحى.

ثم قامت الدبابات الإسرائيلية بالقصف المباشر على ساحات المجمع الطبي أكثر من أربع مرات، وذلك أحدث ضرر كبير في أجزاء من مجمع المستشفى، لقد استهدف جيش الاحتلال وحدة الولادة تقع في الطوابق العليا، فاستشهد سبعة أشخاص، وفي نفس اليوم، وصلت قوات جيش الاحتلال الإسرائيلي عند أبواب المستشفى.

(7)

تواصل القصف طوال الليل حتى الفجر، لكن القصف صار قريبا للغاية، وأصبح على مباني المستشفى.

لقد وجه الاحتلال ضرباته إلى جناح مستشفى الولادة، لم يكن على الأبنية المحيطة ولا الباحات، بل صار على المستشفى نفسها، انتشر الفزع بين الخدج فلا ينقطع صراخهم وبكاؤهم، وانتقل الهرج من خارج القسم إلى داخله، واجتمع كل العاملين في القسم ومن المبنى من أطباء وتمريض وعمال، بل وأهالي بعض الأطفال، يلتفون حول الخدج يحاولون حمايتهم بأجسادهم، مما زاد من أسى نفسي، فلو أن أمي هنا لاحتضنتني وطمأنتني ودثرتني بأنفاسها وتلت القرآن في أذني، فالأمهات دواء للخوف.

كان الفزع ينتشر في أرجاء المستشفى، البعض يكبر والبعض يصرخ فزعا، والبعض يهتف بالدعاء، والبعض يبكي، والبعض صامت في ذهول ينتظر انتهاء الغارات بالموت او النجاة فقط لأجل قريب

ساعات عصيبة وكأنها يوم القيامة، مئات القذائف والقنابل ألقيت على المنطقة تلك الليلة، والطواقم الطبية تكاد تهلك من الاجهاد البدني والنفسي والشهداء والجرحى والمصابين يتضاعف عددهم كل دقيقة،

والمئات يفقدون حياتهم في دقائق ؛ لقلة عدد الاطباء ونفاد المستلزمات الطبية والعلاج.

وأخذ الأطباء في إجراء العمليات الجراحية للمرضى الكبار والصغار بدون تخدير بسبب نفاد البنج، كانت لحظات أليمة موجعة، وأقصى لحظات الألم، عندما يجد طبيب أو ممرضة أو مسعف نفسه أمام أحد من أهله أو أحبته، وقد يجدهم جميعا أمامه قتلى أو جرحى، فيتذكر فجأة أنه انسان.

أما في قسم الخدج، كان الطبيب ناصر ومن معه يحاولون جهدهم الحفاظ على حياتنا بكل وسيلة متاحة، يلفوننا بالبطاطين والشراشف ؛ للحفاظ على درجة حرارة أجسادنا، يجمعون بقايا قوارير المياه الصالحة للشرب ويبحثون عن وسيلة لتعقيم المياه فلا يجدوا، فيضطروا لتحضير الغذاء للخدج بما تيسر لهم من ماء، ويعقمون الأجهزة والمستلزمات الضرورية ويعاودون استخدامها لأكثر من طفل، وهم يعلمون بخطورة هذا الأمر على الخدج من تعريضهم لتلوث أو عدوى، لكنهم مضطرون للعمل بما هو متاح.

لكن شح الادوات والمستلزمات الطبية والعلاج بسبب الحصار على المستشفى، جعل الأمور تزداد صعوبة كل ساعة وكانت الكارثة الكبرى عندما فجر جيش الاحتلال خط الأكسجين الواصل للمستشفى،

فصار قسم الخدج بلا اكسجين وقسم الرعاية في المستشفى الرئيس بلا أكسجين، وبدأت تتجلى أبعاد كارثة نفاد الاكسجين باستشهاد بعض المرضى الذين كانوا تحت أجهزة التنفس في الرعاية المركزة.

وأدركت أن الأمر جلل عندما رأيت الدكتور ناصر في حالة توتر عنيف وهو يصرخ على أحمد أن ينقذ الأطفال الذين تحت جهاز التنفس الاصطناعي، وبتوجيه من الطبيب ناصر كانوا يمسكون بطفل بعد طفل يجرون له تنفس صناعي ومحاولات إنعاش يدوي، وفي خلال ساعات أخذ الوضع يتردى ، ومع فقد أول طفل خديج أخذ اليأس يزحف على كل من في المكان، لدرجة أن الطبيب ناصر بكى وهو يفقد الطفل التالي، فأبكى جميع من في المكان.

وصل المراسل عامر والذي كان لا يزال في المستشفى قبل الحصار وإغلاق الشوارع المؤدية للمستشفى ليطمئن علينا بعد القصف على جناح الولادة وأخذ يتحدث الي أحمد ويفهم منه الوضع الحرج، ويسجل الوقائع بصوته في الهاتف ويشرح ما حدث للقسم ومن فيه .

انتبهت إلى أن أحد الأطباء المتدربين انضم لمن في القسم ؛ ليساعد في انقاذ الأطفال، وعلمت من خلال حديثه مع أحمد أنه طالب في كلية الطب متطوع في المستشفى للمساعدة وقت الحرب واسمه أنس، وما جعلني أنتبه له هو أنه كان واقفا عند الحضانة التي تجاورني وهي

حضانة ذات الحفاضات المعطرة، كان يجري لها تنفسا صناعيا كما علمه الطبيب ناصر ؛ لينقذ حياتها، فما كانت قادرة على البقاء من دون أجهزة ضخ الأكسجين، وحاول أنس عدة مرات حتى كادت الصغيرة تفقد حياتها، فتدخل الطبيب ناصر بسرعة وأخذها منه وحاول معها من جديد بالتنفس الصناعي وأجهزة الضخ اليدوي والانعاش القلبي، وطلب من العم أبي خالد أن يبحث له في مخازن المستشفى عن دواء محدد للصغيرة، وكانت مجازفة خطرة أن يتنقل العم خالد بين مباني المستشفى في وقت كهذا، لكنه تطوع بشجاعته المعهودة لإحضار الدواء للصغيرة، فهو من أقدم العاملين بالمستشفى وحضر كل الحروب السابقة التي شنها الاحتلال على قطاع غزة منذ 2008 حيث التحق بالعمل في المستشفى وقتها وهو شاب صغير.

كنت أفكر فيما يحدث حولي، لماذا يخاف كل هؤلاء من الموت لهذه الدرجة؟! الطبيب ناصر يكاد يتحطم فؤاده لموت طفل بين يديه، وأنس أتى مسرعا؛ ليحاول المساعدة في إنقاذ حياة الأطفال، وحتى سعيد يحاول جاهدا الحفاظ على حياتنا، والعم أبو خالد يجازف بحياته للحصول على دواء ينقذ الطفلة.

كنت أعتقد بعد الأيام التي قضيتها على الأرض أن الحياة ليست بهذه القيمة التي تجعلنا نتمسك بها، وأن الموت ليس مخيفا ولا سيئا إلى

درجة أن يحزن الناس على موت أحد، بل أظنه حل رائع لطفل مثلي لم يرتكب ذنبا ولم تشوه صحيفته بنكتة سوداء، ولا خيارات بعد موته سوى أن يكون طفلا من أطفال الجنة.

أدركت أخيرا الحل السحري لكل مشاكلي وآلامي وخوفي من مستقبلي المظلم بلا أم ولا أهل، وهو الخروج من تلك الحياة كما دخلتها لأذهب مباشرة إلى الجنة، فهناك سأتعرف بالتأكيد على أهلي وتضمني أمي وأتمتع بصحبتها.

قضيت الساعات التالية في محاولات مستميتة؛ لإيجاد طريقة تخرجني من الحياة، لكن يبدو أن باب الخروج كان موصدا، فلم أستطع المغادرة، هل حظي سيء أم أن جيش الاحتلال ضرب حصارا أيضا على بوابة الخروج من الحياة فلا يخرج منها إلا من كان اسمه في القائمة؟!

ليس صحيحا، فالكثير ممن يتمنى الاحتلال مغادرتهم الحياة لازالوا فيها كرجال المقاومة الذين يطاردهم بالاسم، إذا فلماذا لا أستطيع أنا أن أغادرها؟!

حاولت تقيؤ الحليب ربما يدخل في مجرى التنفس وأصاب بشرقة تقضي علي، فلم يحدث، حاولت أن أكتم أنفاسي فلا تدخل ولا تخرج من الرئة فلم أستطع.

الحل الأخير المتبقي هو أن أنتظر حتى يقضي علي البرد كما حدث بعد وقت قصير مع أحد الخدج حضانته في آخر القسم.

موت هذا الخديج بتلك الطريقة، جعل أصوات جميع من في القسم تعلو بالحوقلة ويهتفون بحسبنا الله ونعم الوكيل.

أن يموت طفلا خديجا من البرد لهو أمر مريع بالنسبة للكبار، خاصة الأطباء الذين حملوا مسئولية هؤلاء الصغار واعتبروا أنفسهم مسئولين عن حياتهم، ويبذلون كل جهدهم لإنقاذهم.

كم هي حياة قاسية بشعة، أن تحاول الحفاظ على حياة أحد، ويأتي غيرك؛ ليدمر الحياة ويقتل أبرياء فقط بضغطة زناد أو كبسة زر، أو بتوجيه عن بعد لتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، ففي كل الأحوال هو قتل وقال ربنا جل وعلا من قتل نفسا بغير نفس.....

تواصل الطبيب محمد مدير المستشفى مع الطبيب ناصر بعد عودة شبكة الاتصالات لدقائق، وعلم بالكارثة، وهي فقد اثنين من الأطفال والثالث يحتضر، واستقر الرأي بينهما على عدم صلاحية القسم لبقاء الأطفال فيه بعد أن تم استهدافه، وعليهم نقلهم الى مبنى الجراحة، فهو أكثر أمانا، لكن العقبة كانت في أن نقل الاطفال من مبنى الولادة إلى مبنى الجراحة يعنى أن يمر الأطفال الخدج بساحة المستشفى المكشوفة، وإذا تحملوا خطر التلوث والجو البارد الغير مستقر والنقل الغير صحي

والغير آمن في عدم وجود أجهزة ولا حضانات معقمة، فكيف سيعبرون الساحة وقوات الاحتلال دخلت فيها بالدبابات والقناصة تتمركز فوق الأسطح القريبة من المستشفى، والزنانات تدور في السماء؟!

كان الامر مغامرة شديدة الخطورة، وأنهى مدير المستشفى الاتصال بعد أن وعد الطبيب ناصر بأن يجد حلا لنقلنا نحن الخدج لقسم الجراحة.

وبقي الجميع في القسم ينتظرون حكم الاعدام المؤكد على الأطفال الخدج من الاحتلال بموتنا جماعيا بالقصف، أو موتنا فرادى بالتوالي من نقص الأجهزة والمستلزمات والأكسجين والتدفئة وهم يحاولون كل جهدهم إبقاءنا أحياء بما يتاح لهم.

وعاد العم أبو خالد دون اصابة بالدواء واستقبله الجميع استقبال الأبطال، ونجح الطبيب ناصر أخيرا في انقاذ الطفلة ذات الحفاضات المعطرة بصعوبة كبيرة.

للمرة الرابعة يتم فيها القصف من الدبابات على سطح المستشفى، وقتلوا أحد العاملين وهم يستهدفون ألواح الطاقة الشمسية فوق المبنى، ولم يكف القناصة عن إطلاق رصاصاتهم على النوافذ، فأصابوا فتى كان قريب من النافذة إصابة بالغة.

وأخيرا وصل الطبيب محمد بنفسه؛ ليبشر الطبيب ناصر بأنه أجرى اتصالاته مع أحد ضباط جيش الاحتلال وتفاوض معه على هدنة يوقف فيها اطلاق النار للسماح بنقل الخدج الى قسم الجراحة، وبعد عذاب وافق الاحتلال على الهدنة وايقاف اطلاق النار ساعة واحدة فقط.

اعترض الطبيب ناصر بشدة - وقد صارت أعصابه على حافة الاشتعال وهو المعروف بهدوئه ووقاره - فساعة واحدة لن تكفي أبدا لنقل ستة وثلاثون خديج، وثلاث جثث، كيف ينقل طفلا من مبنى الى مبنى مرورا بالساحة الخارجية في خلال دقيقة ونصف فقط؟ !!

كان في اعتقاده أنه سيضع الأطفال في حضانات متنقلة وينقلهم بشكل آمن، وهذا يتطلب أن ينقلهم في شكل مجموعات قليلة حسب عدد الحضانات المتاحة على عدة مرات ، وهذا قد يستغرق عدة ساعات، وكان على استعداد تام لتحمل صعوبة وجهد النقل فقط؛ ليكون الخدج في أمان، لكن جيش الاحتلال أبى إلا أن يجعل نقلنا أكثر صعوبة وفي جو وظروف محفوفة بالخطر والموت.

اضطر الطبيب ناصر إلى الرضوخ لضغوط جيش الاحتلال وأمر كل من في القسم بأن يدثروا الخدج جيدا بالشراشف والبطاطين والقماش الثقيل؛ ليحافظوا عليهم من برودة الجو، ثم أرشدهم بتعليمات بسيطة إلى الطريقة الصحيحة ؛لحملهم ونقلهم.

وبالفعل استعد كل من في القسم من الأطباء والعاملين والممرضين والمساعدين وبعض أهالي الأطفال الذين لم يغادروا وبعض العاملين في الأقسام الأخرى وحمل كل منهم طفلا، والمراسل عامر يصور كل ما يحدث، وحملني طالب الطب المتدرب أنس بحرص كبير وسمعت بأذني التي تستقر على صدره قلبه يدق بسرعة كبيرة من الخوف وهو يهرول خارجا من القسم متجها للساحة، وكانت المرة الأولى التي أتعرض فيها لضوء الشمس، وهو شيء خطر ومؤلم، ولا يناسب الخدج أمثالي.

لماذا يتحول كل شيء جميل على الأرض الى ألم وخطر على حياتي على الرغم من أيامي القليلة في الحياة؟

كان مشهدا شديد المأساوية، ملائكة الرحمة ومنقذوا الأرواح، في موكب حزين يحملون بين أيديهم كائنات صغيرة بحجم اليد ملفوفين بعناية في شراشف خضراء يهرولون هربا من الموت المتربص بهم على الجانبين.

عندما أكبر، لو رأيت هذا المشهد في أي فيلم رعب أمريكي فلن أصدقه وسألعن السينما وهوليوود وكل من يخرج أفلام الرعب الفانتازية

فالواقع أشنع وأشد رعبا، ففي غزة فقط لن تشاهد فيلم رعب، بل ستعيشه أو ستموت بداخله.

(8)

لا أدري أي شيء في تلك الحياة قد بقي لي بعد كل ما فقدته.

فقدت بيتي، وأمي وأسرتي، وأقاربي، وأي شخص يعرفني، فقدت اسمي، وفقدت قوتي وصحتي من قبل أن أكتسبها وقد ولدت خديج، وفقدت قوة صوتي للبكاء، وفقدت أم أويس التي كانت ترعاني، وفقدت الدفء والأمن والأمان داخل جهاز الحضانة.

والآن فقدت مساحتي الشخصية والخصوصية التي كان يوفرها لي التواجد في قسم الحضانات حيث كل نزيل.. أقصد كل خديج له مكان خاص به .

وصرت الأن ملقى في سرير كبير في غرفة الرعاية المركزة الملحقة بقسم الجراحة.

لم أكن وحدي في السرير، بل تم حشري بين مجموعة من الرعاع الأوغاد المزعجون، حيث يقيئون الحليب المخثر ولا يكفون عن الصراخ المزعج ولا الحركة العشوائية.

بالذراعين والرجلين، ربما لو كان صوتي قويا ويخرج البكاء بطريقة طبيعية ؛إذا لنافستهم على الصراخ، لكن صوتي – كما قلت سابقا– يشبه نقنقات الدجاج.

لا تلومن خديج حاقد على الحياة، فقد انتقلت إلى مرحلة جديدة من المعاناة التي لا يطيقها بشر برد وجوع وقلة نظافة من تأخر تغيير الحفاض وأصوات مزعجة تصب في أذني وقد أُصاب بقبضة في وجهي أو ركلة في بطني بشكل عشوائي.

فقد خرجت الأمور عن السيطرة والطبيب ناصر وطاقمه الطبي لا يستطيعون التناوب على رعاية هذا العدد من الخدج وهم مشغولون بإنقاذ حياة الحالات الصعبة التي تحتضر بالفعل، والحالات المعرضة للموت، ولم أكن منهم للأسف؛ لذلك كنت شبه منسي إلا بالصدفة عندما يتذكرني سعيد أو ينتبه إلى أنس، وبعد أن تم تقسيمنا نحن الستة والثلاثون خديجا على بضعة أسرة كانت مخصصة لمرضى الرعاية فصار كل ثمانية أو تسعة أطفال على سرير، وأصابني الذعر عندما فوجئت بأن جاري في السرير هو ذلك الصبي المزعج المسمى رائد، وحجمه ضعف حجمي ويمتاز بقوة الجسم وقوة الصوت - وقد تحدثت عنه سابقا- فلا هو بخديج ولا هو برضيع طبيعي.

وفي ركن السرير يقبع كائن ضئيل يتحرك ببطء ويدير رأسه الى طرف السرير وكأنما يخشى أن ينظر نحونا، لكن رائحته السيئة تصل لأنوفنا وكأنما هو مصاب بإسهال، وما كنت لأنتبه لوجوده لولا أن رائد يناديه (بالقزم الذي لا يحبه) واكتشفت بعد فترة قصيرة أن أمه وأخاه

الأكبر يرافقانه، فكل عدة دقائق ترسل ابنها أو تأتي بنفسها ؛ لتطمئن عليه، وتطلب من سعيد أن يبدل له الحفاض أو يضبط أنبوب التغذية أو يقيس درجة حرارته، وسعيد يكاد يجن، لكنه ينفذ ما تطلبه منه بصبر عجيب، ربما يتعاطف مع توترها المبالغ فيه سمعتها تدعوالله وتهدهده وتطلق عليه اسم عموري.

ترى لو أن أمي حية، ماذا كانت ستطلق علي كاسم تدليل؟

لم تكد الساعة المتفق عليها مع جيش الاحتلال تنتهي، ويستقر الخدج في أماكنهم الغير صحية، حتى عاود جيش الاحتلال القصف من جديد على المباني المحيطة بالمستشفى، وعادت المسيرات الزنانة تستهدف باحة المستشفى، وعادت التهديدات أشد وأكثر وضوحا لمدير المستشفى والأمر بإخلاء المستشفى.

وكان رد مدير المستشفى باستحالة الإخلاء، فلا يوجد مكان آمن لإجلاء المرضى والمصابين، وإخراجهم من المستشفى هو بمثابة حكم بالإعدام على آلاف البشر أغلبهم من الاطفال والنساء وفيهم خدج.

بعد أن تلقى الاحتلال رد الطبيب محمد مدير المستشفى استمرت الدبابات تقصف على ساحة المستشفى والمسيرات تقنص النوافذ بمجرد أن يقترب منها ظل أي انسان وانقطع التيار الكهربائي وشبكات الاتصالات.

كنا جميعا معزولين عن العالم، حتى الأطباء الأجانب من منظمة أطباء بلا حدود والأطباء والموظفون من منظمة الصحة العالمية انقطعت كل سبل الاتصال بينهم وبين المؤسسة التي ينتمون اليها، وأصبحوا محاصرين في القطاع وعالقين في المستشفى وعاجزين عن الخروج حتى لساحة المستشفى أو الانتقال من مبنى الى آخر للمستشفى ولم يعد هناك فرق بينهم وبين أطباء غزة.

وبدأت تنتابهم حالات من القلق والتوتر وقد بات لديهم يقين أن جيش الاحتلال قد يقدم على عمل أخرق كقصف المستشفى أو تفجيره كما حدث في المعمداني.

كان عداد الموت يدور بسرعة فيفقد مرضى الرعاية الذين كانوا تحت أجهزة الأكسجين حياتهم واحدا بعد الآخر بسبب انقطاع الأكسجين عنهم، والأطباء عاجزون عن إنقاذهم أو تقديم أي مساعدة لهم.

حوالي ١٥ الف من النازحين في المستشفى بخلاف المرضى والمصابين والطواقم الطبية ورجال الإسعاف والدفاع المدني محاصرون في الداخل بلا ماء ولا غذاء لا يستطيعون الخروج من أماكنهم ولا التواصل حتى مع المتواجدين في مباني المجمع الأخرى أو الوصول إليها، وأصوات القصف والطلقات والزنانات تلقي الرعب في قلوب الجميع.

تحول المجمع إلى منطقة حرب بكل معنى الكلمة، تحليق مكثف

للطائرات وقناصة حول المباني وفوقها ومسيرات مسلحة، وكل من يتواجدون في المجمع مدنيين عزل لا يحملون سلاحا.

صوت التفجيرات يصم الآذان وتم قصف جميع البنايات حول المستشفى واستهداف اي شخص يتحرك في الساحات.

بعد ساعات، خاطب الاحتلال النازحين في المستشفى بإلقاء المنشورات وعبر مكبرات الصوت، وأخبرهم أنه صنع ممرات آمنة لهم للخروج الآمن إلى الجنوب وعليهم أن يخرجوا الآن.

بالفعل بدأت مجموعات كبيرة من النازحين يغادرون.

أم عمورى لم تستطع البقاء من الرعب، ولن تستطيع أن تأخذ طفلها معها فهو بحاجة شديدة لعناية طبية، ولا يستطيع التغذية إلا بمساعدة طبية، فوقفت أمام الطبيب ناصر ترجوه أن يعذرها ؛لاضطرارها للرحيل الآن، وتوصيه بطفلها.

لكن أحمد انتبه للأمر فاقترب منهما وقال لها: الأفضل أن تبقي معنا، فالخروج الآن شديد الخطورة.

انخرطت في البكاء، وقالت له: أريد أن أخرج لأعود لبيتي وأجد زوجي، فالاتصالات مقطوعة ولا أستطيع الوصول إليه.

قال بأسف: لقد أغلقوا جميع الطرق، ولم يعد هناك أي طريق مفتوح سوى الطريق المؤدي للجنوب.

شهقت بذعر: وكيف سأعود الآن للبيت!

قال سعيد: كل من يحاول العودة للشمال يطلقوا عليه النار

قالت: يجب أن أجد زوجي، وأنا.. أنا..

أكملت بخجل: أنا وابني نتضور جوعا، والمستشفى هنا ليس بها طعام ولا ماء، لو بقينا لهلكنا جوعا.

قال أحمد: ولو خرجت سيقتلونك بالقصف.

هتفت بيأس: والله صرت أتمناها، ذاك أفضل من أن أموت كل دقيقة وآنا أرى أولادي جوعى، أين الأمة الاسلامية من كل ما يحدث لنا؟! لماذا لا يفتحون المعبر ويرسلون المساعدات؟!

قال سعيد: لن يفتحوه إلا بأمر جيش الاحتلال.

هتفت بعناد: ونحن لن نموت إلا بأمر الله.

تركت طفلها في رعاية الطبيب ناصر وخرجت مع مجموعة من النازحين يحاولون النجاة والخروج من المستشفى للوصول لمكان آمن به ماء وغذاء.

زفر الطبيب ناصر بألم وقال: لا تجادلوا أما تبحث عن الطعام والأمن لأطفالها، إنها محقة، ولو أن المعبر مفتوح لما ساءت الأحوال لتلك الدرجة، ولم مات نصف عدد من ماتوا في غزة.

قال أحمد: ككل من يستشهد بالقصف المباشر يقابله واحد يستشهد من قلة العلاج والأدوية والعناية الطبية، طبيب بدون مستلزمات طبية! كيف لنا أن نعالج الجرحى، لم لا يرسلون الأدوية والمساعدات الطبية عبر المعبر؟!

قال سعيد -بغيظ-: لا يرسلون سوى الأكفان فقط.

عادت أم عموري لهم بعد فترة مهرولة وهي تبكي من الرعب، وأخذت تحكي لنا ما حدث.

الممرات الآمنة ليست آمنة، هي كذبة أطلقها الاحتلال.

لقد نسفوا المسجد أمام المستشفى وقصفوا النازحين وأطلقوا عليهم الرصاصات بالرغم من أنهم كانوا يرفعون رايات بيضاء تعنى الاستسلام ، وقد شاهدت مسيرات تقنص المدنيين عند البوابة كانوا في طريقهم للخروج ورأت جثث تتساقط على الأرض، احدى الأمهات كانت تحمل بيد الراية البيضاء و تمسك بطفلها وتصرخ عليهم ؛ ليوقفوا إطلاق النار، لكنهم قتلوها وسقطت عند البوابة مضرجة بدمائها.

حاولت مع المجموعة التي خرجت فيها أن نتقدم نحو البوابة، لكن جنود الاحتلال أطلقوا علينا النار فمات أحد المتقدمين وركضت هاربة وعدت إلى هنا.

أنهت حكايتها وافترشت الارض هي وابنها مستسلمين لأقدارهما فلا هي تستطيع الاتصال بزوجها خارج المستشفى، ولا المغادرة ؛ للبحث عن طعام.

هدأت حدة القصف بعض الشيء مما جعل الطبيب محمد وادارة المستشفى يفكرون في التواصل مع جيش الاحتلال ؛ ليسمحوا لهم بدفن الجثث المكدسة في الأقسام والساحات في مقبرة جماعية في ساحة المستشفى قبل أن تتحلل وتتسبب في كارثة صحية.

أما رائد فقد أخذ يتشاكس مع عموري كعادته، وفهمت أن حضانتيهما كانتا متجاورتين ،ودائما ما يتشاجران عبر الصوت.

نعم أستطيع فهمهما ، فالرضع يتواصلون بلغة ينسونها بمجرد أن يتعلموا كلام البشر؛ لذلك لا يفهمها الكبار، كان رائد يناقشه فيما حكته أمه وما حدث لها من غدر جيش الاحتلال: أخبرتك من قبل أيها القزم الذي لا أحبه أن اليهود ينقضون العهود، ولا يصدقهم إلا غبي.

رد عموري بعناد: بل أنت الغبي، أنت وكل من أوصلنا لما نحن فيه الآن، ما كان عليهم أن يستفزوا الإسرائيليين ويهاجموا مستوطناتهم يوم السابع من أكتوبر.

قال: لأن الصهاينة كانوا يعدون العدة لمهاجمة غزة وإخراج أهلها منها وتنفيذ صفقة القرن.

– وكيف تعلم أيها الرضيع الذي لا يحمل عقله سوى الحليب!

– علمت من كلام أبي، فأبي أحد القادة في المقاومة وهو يعلم بخطط اليهود.

– أنت تخدعني اذ كيف أخبرك أيها الكاذب!

– لم يخبرني يا غبي، سمعته وهو يتحدث مع زملائه، قبل السابع من أكتوبر بيومين، تعلم أننا الرضع يتحدث أمامنا الكبار دون أن يخشوا شيئا، حيث يعتقدون أننا لا نفهم.

سألته بدهشة: وكيف تشي بأسرار سمعتها من والديك!

لا تكن غبيا أنت الآخر، فكيف لرضيع أن يشي بأسرار؟!! إن كل ما يدور بيننا الآن من حديث سننساه بعد فترة قليلة وبمجرد أن نكبر ونترك خلفنا فترة الرضاعة.

رائد اتضح أنه طفل عالي الثقافة ومن بيت نذر أفراده أنفسهم لمقاومة المحتل؛ لذلك فهو يدافع باستماته عن فكرة المقاومة وعن حركات المقاومة، ويتمنى أن يكون كوالده عندما يكبر.

أما عموري، فيجادله باستمرار ويتهمه بأن ما حدث في السابع من أكتوبر هو سبب الخراب الذي نحن فيه الآن، لقد أطلقت المقاومة الوحش الكاسر من مكمنه، ولم تستطع أن تحد من اجرامه وشراسته، ومع كل صاروخ تطلقه يزداد توحشا وولوغا في دم الأبرياء.

أخرجت نفسي من جدالهما الممل بصعوبة، وصمت متفرجا لا أبالي، فما هي إلا أيام معدودة لنا جميعا نحن الخدج على هذه الأرض، وسنغادرها واحدا خلف الآخر بسبب حصار جيش الاحتلال للمستشفى ، ومنع كل مقومات الحياة عنها.

تلك الليلة كانت الأكثر قسوة من كل ما مضى، ولا أدري إلى متى سأكرر تلك الجملة! فكل يوم أشر مما قبله، ولم أعد أنتظر الغد ؛ ليأتي لي بجديد، بل أتوقع الأسوأ، فقد كان القصف عنيفا على المستشفى، خمسة من مباني مجمع الشفاء تضررت من القصف، وشبت النار وتطورت الى حريق بجوار قسم الكلى ولم يستطع أحد الخروج ؛ لإطفاء النار وبقيت مشتعلة لفترة طويلة.

وبدأ ينتشر خبر استشهاد مجموعة من أطباء المجمع.

وانتشر الحزن بين جميع من في القسم بعد أن استشهد الخديج الثالث، فجسده لم يتحمل البرد في ذلك الوقت العصيب وتضرر من إخراجه من الحضانة.

انتبهت إلى أن رائحة الحفاضات المعطرة عادت تقترب مني، وكان علي أن أزحزح رأسي ؛ لأرى صاحبتها -جارتي من أيام خير الحضانات الخاصة الراقية- لكن الأمر شاق على أمثالي من الخدج للغاية ؛ بسبب ارتخاء العضلات وضعف الجسد، لكنني حاولت بجهدي الضعيف؛

فتلقيت ركلة في وجهي آلمتني وحركت أنبوب التغذية عن موضعه، ولم ينتبه أحد لبكائي الضعيف سوى أنس الذي كان يقف قرب زاوية السرير يراقبنا.

لم يكن محترفا في التعامل مع الخدج؛ لذلك نادى سعيد لينقذني ويضبط الأنبوب، لكن سعيد من حيث لا يدري حقق لي ما أريد، فقد وضع رأسي باتجاه صاحبة الحفاض المعطر، لكنني أدركت بعد ركلة أخرى طالت ظهري أنها ليست واحدة بل اثنتين، الأختين التوأم جوري وياسمين، وضعني سعيد بينهما، وكان رأسي باتجاه ياسمين النائمة ذات الجسد الضئيل الضعيف والتنفس الغير مستقر، والقلب المعتل الذي لم يكتمل أداؤه الوظيفي بشكل مطمئن، حيث به فتحة شريانية لم تغلق أبوابها بعد، فهي لا يكتمل نموها وتغلق إلا باستكمال اسابيع الحمل، والوصول لموعد الولادة أما جوري فصحتها جيدة وتدفع وتركل بقوة وتستطيع مغادرة الحضانة لولا انقطاع الاتصال بأهلهما ولا أحد من المستشفى يعلم إن كان لا يزال أحد من أهلهما حيا أم أنهم استشهدوا جميعا.

لم يعد الطاقم الطبي المسئول عن الخدج يفكر في هذا الأمر، ولا كيف سيعود الخدج إلى أهلهم، ولا ماذا سيفعلون بالخدج أمثالي الذين فقدوا أهلهم جميعا، فكل ما يعنيهم الآن هو الحفاظ على حياتنا، حتى

لو كان مثلي يرى آن الحياة لم تعد تعنيه ، ولا أحد له فيها ويريد أن يتركها للأقوى ويرحل.

لكن للأطباء رأي آخر، فالطبيب ناصر يتمسك بحياة كل خديج كما لو كانت حياته هو.

(9)

أخيرا بدأت ذات الحفاضات المعطرة تفتح عينيها وتتعرف لأول مرة على الحياة والأرض التي ولدت فيها، كان صوتها رقيقا منخفضا، لكننا نستطيع سماعه، وأكثر من فرح باستيقاظها كان الطبيب ناصر الذي يتابع حالتها بقلق، وأختها جوري التي أخذت تحرك أطرافها الأربعة بسرعة وحماس وتصدر أصواتا وكأنما تحييها وتحتفل بنجاتها.

كان أول سؤال سألته ياسمين هو السؤال الذي يسأله أي طفل: أين أمي؟

لا أدري من آين أتتني الشجاعة لأجيبها: أمك ستعود بعد الحرب لتحتضنك وتأخذك للبيت.

سألتني: أليس هذا هو البيت؟!

قلت: لا، هذا مستشفى، أنت هنا للعلاج.

قالت جوري – بمرح- : فاتك الكثير، نعيش هنا فيلما من أفلام الحركة والإثارة – لا تصدقي، فقط أمزح.

لا أدري من أين تأتي جوري بكل هذا الثبات الانفعالي! ربما لأن جهازها العصبي مكتمل، أو ربما لأنها تعلم بأن لها أم ستعود إليها، أو ربما لأن الأطفال لا يدركون الأخطار لصغر عمرهم.

بدأت أشعر بأن هناك جديد في حياتي يستحق أن يعاش عندما انضممت لتلك المجموعة المؤلفة من مزيج عجيب من الاختلاف.

تولت جوري عملية التعارف بيننا فردا فردا كما لو كانت مراسلة صحفية في قناة فضائية.

تلك هي ياسمين أختي الحبيبة، مريضة وخديجة، لكنها بالرعاية والعلاج ستشفى وتكبر ، وستصبح زهرة متفتحة.

وهذا رائد، عاشق المقاومة ويرى أنها السبيل الوحيد للخروج مما نحن فيه، إن كان لك رأي في المقاومة مخالف لرأيه أنصحك أن تحتفظي به لنفسك حتى لا تستثيري حفيظته، فهو لن يسكت عن الجدال.

وهذا عموري، يحب جدال رائد ومخالفته في كل شيء، وهما لا يكفان عن إزعاجنا في كل وقت بمشاكساتهما.

أما هذا فهو.. أرجو المعذرة ما اسمك؟

قلت: لم يطلقوا علي اسما بعد.

قالت ياسمين: وهل هناك طفل يولد بلا اسم!

صمت قليلا وقد ملأني الألم، ثم قلت: نعم، عندما يكون بلا أم، أنا يتيم.

قالت ياسمين: اليتيم سيجد له ألف أم من أمهات غزة.

أكدت جوري على كلامها بفخر: هنا نساء يجدن فنون الأمومة.

كان الجميع لطفاء معي، فلم يحاولوا الخوض فيما يؤلمني، بل مرروا الأمر وعادوا للحديث في موضوع آخر، فقالت جوري: أخبروني، ماذا يتمنى كل منكم أن يكون عليه عندما يكبر؟!

قال رائد: مقاوم بالطبع، ليس هذا بسؤال.

قالت جوري: كلنا مقاومون، المقاومة ليست مهنة وليست عمل، بل هي فعل يقوم به كل البشر إذا ما وقعوا تحت الاحتلال، اختر مهنة.

فكر قليلا ثم قال: لدي الكثير لأمتهنه، ربما حفار أنفاق، لا، أفضل أن أكون مشعل دبابات.

كنت أفكر في كلماته وأتعجب، رضيع مثله ذو جسد قوي صحيح سليم، وعقل ذكي، وإرادة حرة، إذا ما كبر سيحظى بمستقبل واعد، وستفتح له أبواب الدنيا على وسعها ينال منها الأفضل، لكنه لا يري أي مستقبل من دون مقاومة.

سألت جوري عموري: وأنت، بماذا تحلم؟

قال: أحلم بالمال، بالشهرة، بالسفر، بالوصول لمنصب رفيع.

قالت: أنا على يقين بأنك ستفعل في المستقبل، فكل من يفكرون بتلك الطريقة يصلون إلى أهدافهم أسرع من غيرهم.

سألها رائد: وأنت، ماذا تريدين أن تصبحي في المستقبل؟

قالت – بثقة مفرطة– : لقد أصبحت بالفعل، كما ترى أنا إعلامية تماما كأبي، وسأصير بعد سنوات معدودة أصغر مذيعة على شاشة الفضائيات في العالم.

سألها عموري: وهل أختك كذلك؟

قالت ياسمين بصوتها الضعيف وهي تلهث من احتياجها للأكسجين: لا أعرف بعد ماذا أريد، لكنني أحب أن أكون أما تحب أولادها وتعلمهم كيف يزرعون الخير في هذا العالم المتوحش.

قالت جوري: عدنا للأمنيات العامة.. كل أنثى بداخلها أم، هي ليست مهنة ولا تخصص.

قالت ياسمين: حسنا، لم أفكر في الأمر بعد.

سألتني جوري: وماذا عنك!

اندفع لساني دون لجام، وقلت بتهكم: لا أحب أن أفسد ذلك الحوار المرح اللطيف، لكني لن أكمل أيامي في تلك الأرض ولا يشرفني أن يكون لي مستقبل في هذا العالم المتوحش، فلتهنئوا بأحلامكم اللطيفة وحدكم، فأنا على موعد مع الموت، وأظنه تأخر كثيرا عن موعده، لا أدري لم تسير حياتي بساعة غير مضبوطة، فهي في ولادتي المبكرة تعمل متقدمة عن موعدها، وعندما أنتظر الموت تعمل متأخرة.

قالت ياسمين: لا تقل هذا، فكل شيء بقدر، إنها إرادة الله أن تأتي للحياة في هذا الوقت، ولا تعلم الحكمة من ذلك، ربما تكون حياتك أثر وعلامة في حياة أشخاص آخرين وأنت لا تدري.

قلت: وماذا يعنيني من الأشخاص الآخرين، إن ما يهمني هو حياتي أنا، سأعيش وأموت عبثا.

قالت: لم يخلق ربنا جل وعلا أي شيء عبثا، حاش لله.

عليك أن تثق بأن الله جل وعلا خلقك لغاية لا تعلمها الآن، ولن تموت حتى تستكمل رزقك في الحياة وتقضي الغاية التي خلقك لها

ما بين فترات القصف الطويلة، قد يهدأ بعض الشيء، وقد تعود شبكة الاتصالات الميتة للعمل لدقائق قليلة، وكان أول من التقط هاتفه شبكة الاتصالات هو المراسل عامر، فأرسل بسرعة الصور والرسائل التي سجلها بصوته على هاتفه للقناة والتي سجل فيها كل ما رآه وسمعه في المستشفى في الساعات الماضية.

كان سعيد ينظر نحوه بترقب، ينتظر بفارغ الصبر أن ينتهي ؛ ليطلب منه الهاتف ليطمئن على ريم، وبالفعل أعطاه عامر الهاتف ؛ ليجري اتصالا بريم، لكن هاتفها كان مغلق، حاول أن يطمئنه قائلا: تعلم أن شبكة الاتصالات مقطوعة، بالتأكيد لم يلتقط هاتفها الشبكة.

حاول سعيد الاتصال ببعض أقاربه حتى رد أحدهم، وكانت صدمته الكبرى عندما أبلغه بأن بيته الذي ينتظر بفارغ الصبر أن يشهد عرسه هو ومخطوبته ريم قد قصف وأصبح أثرا بعد عين.

وما أحرق قلبه هو أنه لم يستطع أن يتوصل لأحد يعرف شيئا عن ريم وماذا حدث لها؟

انزوى سعيد في ركن ، وأخذ يبكي بألم ، ويلعن الحرب والصهاينة، والتف حوله أنس وعامر يواسيانه، فقال بألم: لم يعد لي مكان سوى المستشفى، وهي الآن محاصرة من جحافل الصهاينة يريدون أن يخرجونا منها.

قال الطبيب ناصر: أي نوع من أنواع الإجرام هذا الذي يحاصر فيه المحتل مستشفى ويقصفها.

ما الذي يريدونه منها؟، لا أفراد مقاومه هنا ولا أنفاق.

قال عامر: هم لا يريدون أفراد المقاومة ولا الأنفاق، إنهم يكذبون كما يتنفسون.

قال أنس –مؤكدا على كلمات عامر– : إنهم يريدون تدمير مستشفى الشفاء ومحوه من الوجود.

قال سعيد: ولكن لماذا يدمرون مجمع طبي!

قال أنس: لأنه رمز لانتفاضة شعب.

تطلع إليه الجميع يستمعون له فقال: منذ اليوم الأول للانتفاضة الأولى عام 1987، كان مجمع الشفاء الوجهة الأولى لتلقّي المصابين؛ لذا شهد حملات ضخمة للتبرع بالدماء، وكان في محيطه الكثير من الاحتكاكات بين المتظاهرين والجيش الإسرائيلي. وكذلك مظاهرات بها قادة المقاومة، وكانت عنيفة في وقتها، وغرزت فيهم الرعب، وبرغم أن مجمع الشفاء وقتها لم يكن مجهزا؛ لاستيعاب أعداد كبيرة من المصابين، لكنه كان وجهتهم للعلاج، وهذا ما جعل جنود الاحتلال يقتحموه ويعتقلوا المتظاهرين من داخله، لكنهم قوبلوا بمقاومة عنيفة هذا الصرح العظيم، كان سندا ودعما للانتفاضة.

سأله العم أبو خالد: كيف عرفت كل هذا ولم تكن وقتها قد ولدت بعد؟

ابتسم قائلا: أبي كان هنا وقتها.

تحت القنابل الضوئية والقصف العنيف وأصوات الزنانات، مر الليل على الجميع كأشد ما يكون ظلمة، وخاصة على سعيد الذي عاد يمارس عمله في رعاية الخدج وبذل قصارى جهده ؛ لإطعامنا وحمايتنا

دون كلل وقلبه مفطور من الالم، وعيناه تحبسان دمع القهر، حزنت لأجله كثيرا، أعلم كم يحب مخطوبته ريم، وكم كان ينتظر على أحر من الجمر أن يجمعه بها بيت ويصبحان أسرة.

وفي ليلة حالكة كتلك تحطمت آماله، وفقد البيت الذي بناه وأسسه من قلبه وروحه في قصف غادر، وهو الآن لا يعلم شيء عن مخطوبته، هل قضت تحت حطام بيتها هي وأسرتها أم لازالت حية؟

وبرغم كل ذلك الألم، لكن سعيد لم يتوقف عن التفكير بنا نحن الخدج، كان التحدي الذي يواجهه هو وباقي الطاقم الطبي، أن نبقى أحياء مهما كانت حالتنا الصحية، ولكن كيف سنبقى أحياء من دون أجهزة تدفئة تضبط درجة الحرارة؟! فأجساد الخدج لم تكون بعد الدهون التي تحفظ حرارة الجسم؛ لذلك فدرجة حرارة أجسامهم الضئيلة غير مستقرة وتحتاج لنظام تدفئة.

استطاع الطاقم الطبي أن يبتدعوا طرقا مختلفة ؛ لتدفئة الصغار

فسخنوا الماء ووضعوه في القوارير الفارغة ووضعوها على السرير بالقرب من الاطفال، وكذلك لفوا جوانب السرير وأركانه بورق القصدير اللامع بحيث يكون محيط بالصغار، حيث أنه عاكس للحرارة؛ فيساعد على الاحتفاظ بالحرارة داخل السرير.

وهكذا فعلوا مع باقي الأسرة، أما عن توفير الماء الصالح لتحضير غذاء الخدج، فقد كانت تلك هي المشكلة الكبرى بعد نفاد المستلزمات الطبية، فقام العم أبو خالد ومعه أنس وعامر بالبحث عن الماء النظيف في كافة أرجاء المجمع الطبي الذي يمكن الوصول اليها تحت هذا الحصار الإجرامي.

كانت مهمة بالغة الصعوبة والخطر مع استمرار القصف على المستشفى وانتشارطائرات الكواد كبتر التي تستهدف النوافذ وتطلق الرصاصات على أي ظل يمر من أمامها، كما لم تتوقف المسيرات عن القاء القذائف في ساحة المستشفى، لكنهم جاسروا وغامروا بأرواحهم من أجلنا نحن الخدج، من أجل أن يحصلوا على ماء نظيف لغذائنا.

مرت الساعات عصيبة حتى عاد الثلاثة ببعض الماء يكفينا لوقت قليل، واكتشفنا أن أنس مصاب في كتفه، فقد مر من أمام إحدى النوافذ دون أن يأخذ حذره فأطلقت عليه المسيرات النار، لولا أن العم أبو خالد دفعه بعيدا عن النافذة ليسقط على الأرض؛ لكان الآن في قافلة الشهداء.

جلس الثلاثة على الأرض يلتقطون أنفاسهم وتولى سعيد مهمة تضميد جراح أنس بما تيسر له من بقايا ضماد طبي في المكان أو حتى مستعمل، وهو يدرك تماما أن ذلك يعرضه لخطر التلوث، لكن إيقاف النزيف الآن هو الأولى من التفكير في التلوث.

وأخذ أنس يحكي عما يدور بالخارج وما واجهه الثلاثة في رحلتهم الخطرة؛ لجلب بعض الماء.

لقد رأى مئات الجثث تحللت في ساحات المستشفى.

وبعض الشباب صعدوا على الأسطح معرضين حياتهم للخطر، وهم يصلحون بعض الواح الطاقة الشمسية لتوفير بعض الكهرباء لشحن الهواتف وقد يصابون بقذيفة، أو يستهدفون بطلقات النار.

حاول سعيد جاهدا الاتصال بريم ، لكن هاتفها مغلق.

حاول أن يتصل بأهله ، لكنه لم يستطع أن يصل لأحد منهم وهو يكاد يجن من الخوف.

أخبرهم عامر عما يحدث بالخارج ،وعن تطورات الإخبار عن الرسائل التي ترد لجواله ؛ كلما التقط شبكة ضعيفة .

أغلقوا كل الطرق المتجهة للشمال، وكل من يحاول العودة للشمال يطلقوا عليه النار.

الجثث ملقاة في الشوارع والطرقات لا تجد من يدفنها.

سأله العم أبو خالد: إذا فالمقصود هو تهجير الناس من الشمال وإخلاؤه.

قال أنس بقلق: أخشى أن يكون التهجير من كل المناطق لا الشمال فقط.

قال سعيد: هذا هو هدفهم، نكبة جديدة في غزة وتهجير شعب بأكمله.

قال الطبيب ناصر: ولهذا يدمرون المستشفيات ويجعلونها غير صالحة للعمل؛ حتى لا يتجمع فيها الناس ولا يرحلون.

قال أنس: لهذا يتوحشون في القتل والتدمير؛ ليخاف الأحياء ويرحلون.

قال عامر: يطبقون خطة عقيدة الصدمة؛ لتهجير الناس وإجلائهم عن أرضهم.

سأله سعيد: ماذا تعني بعقيدة الصدمة؟!

إنه كتاب قرأته منذ فترة يتحدث عن تحليل رأسمالية الكوارث ؛ فالدول الكبري تعمل على استغلال أي كارثة، سواء كانت انقلاباً، أم هجوماً إرهابيا، أم انهياراً للسوق، أم حرباً، أم تسونامي، أم إعصارا من أجل تمرير سياسات اقتصادية واجتماعية يرفضها السكان في الحالة الطبيعية.

قال أنس: أو باستخدام القتل والرعب والتدمير والإخلاء من أجل تغيير واقع ديموجرافي كما يفعلون الآن.

سأله العم أبو خالد: ماذا تعني بديموجرافي؟!

أجابه أنس: التركيبة السكانية للأرض.

قال: فهمت، نكبة جديدة كما قال سعيد، تهجير المهاجرين

إن قطاع غزة هو المكان الذي يضم كل من تم إجلاؤهم عن أرضهم في أغلب ربوع فلسطين من 1948 وحتى الآن، هنا ستجد المدن والقرى والشوارع والحارات الفلسطينية من شرقها لغربها قد تحولت لبشر يسيرون على قدمين.

والآن يخططون لتهجيرنا من جديد، وهذه المرة إلى أين!!

قال عامر: لسيناء، وتلك هي صفقة القرن، لم يعد الأمر سرًا، بل صارت التصريحات والتحليلات علنية.

انتفض العم أبو خالد وهتف غاضبا، لن يحدث، لن يخرجوننا من أرضنا.

قال الطبيب ناصر: الحكومة المصرية أيضا رفضت التهجير.

قال سعيد: أي فلسطيني على تلك الأرض يرفض الخروج منها لأي مكان.

قال أنس: إذا، فما تفعله المقاومة هو محاولة؛ لمنع تمرير صفقة القرن.

قال العم أبو خالد: المقاومة تقف وحدها الآن في وجه مؤامرة عالمية على شعبنا، تحاول بصواريخها وعتادها المصنع يدويا وبإمكانيات محلية أن تمنع النكبة المنتظرة.

استطاع مدير مجمع الشفاء أن يجري اتصالات مع المؤسسات الدولية من الصليب الأحمر ومنظمة الصحة العالمية ويشرح لهم الوضع السيء في المجمع ، ويتحدث إلى القنوات الفضائية العالمية ؛ مطالبا العالم بالتدخل السريع ؛ لإنقاذ المرضى في مجمع الشفاء ، ويطالب بإدخال الوقود وتشغيل مضخات اكسجين؛ لإنقاذ ما تبقى من مرضى الرعاية المركزة الذين يحتاجون لأكسجين، مما جعل منظمة الصحة العالمية تصدر تصريح بأن مستشفى الشفاء منطقة موت، فهو لم يعد يعمل كمستشفى بعد الآن، وأن ترك الجثث تتحلل في ساحة المستشفى سيتسبب بانتشار الأوبئة والأمراض وسيعرض حياة المدنيين للخطر.

وكذلك أصدر الهلال الأحمر الفلسطيني تصريح بأن الطاقم الطبي والمرضى لا يزالون محاصرين داخل المجمع الطبي دون طعام أو ماء أو كهرباء، ويحذر فيه من كارثة إنسانية إذا لم يتم إمداد المجمع بالوقود.

وصول القصة للهيئات الدولية وانتشارها في الأخبار جعل جيش الاحتلال يتصل بمدير المستشفى ويتفاوض معه في توفير وقود يكفي؛ لتشغيل أجهزة المستشفى الحيوية للمرضى، كان الجدال محتدما على كمية الوقود فالاحتلال يرفض أن تزيد الكمية عن ثلاثمئة لتر، والطبيب محمد يحاول أن يتفاوض معه على كمية أكبر.

أدرك الطبيب محمد عدم جدوى الحديث مع الاحتلال، فهم

يسخرون من معاناة المرضى والمصابين، فثلاثمائة لتر لا تكفي سوى لتشغيل أجهزة المستشفى لأقل من ساعة، فاحتياجات المستشفى من الوقود يوميا تزيد على ثمانية آلاف لتر، وانتهت المفاوضات إلى أنها ثلاثمئة لتر فقط لا غير.

بدأ الناس يتحركون بحذر بالغ بين مباني المجمع، ونظف العم أبو خالد القسم وحمل المستهلكات والقمامة والنفايات ؛ ليخرجها للساحة حفاظا على صحة الخدج، وغاب لفترة طويلة مما جعل الجميع يقلقون أن يكون حدث له مكروهاً.

لكنه عاد سالما يحمل في يده خبزا، فصاح كل من في القسم بفرحة وصفقوا له والتفوا حوله وأخذوا يتبادلون الحديث وهم يتقاسمون اللقيمات التي لم تدخل مثلها جوفهم منذ وقت طويل، ويسدون بعضا من جوعهم، فقد كانوا يتضورون جوعا، وقدم سعيد الخبز لأم عموري التي شكرته بامتنان.

وأخذ العم خالد يحكي لهم كيف حصل على الخبز، فقد قامت النساء بما يلزم وافترشن أحد الاركان وعجنَّ الطحين وصنعن فرنا بسيطا بأقل الإمكانيات ،وخبزن خبزا على الحطب والنفايات وكل ما يمكن حرقه واستخدامه كوقود وعندما سألوه كيف وفر الطحين ؟أجابهم بأن هذا سؤال لا يسأل لفلسطيني ؛ فالشباب هنا يصنعون المستحيل.

(مئة وسبعون شهيد مدفونون في ساحة المستشفى الآن) قال العم خالد فتطلعت إليه عيون الجميع، ودمع القهر حبيس خلف النظرات الحزينة، واستمعوا له بصمت وهو يحكي كيف اشترك مع الكثير من العاملين في باقي الأقسام وبعض الناس في الساحة ، وأخذوا يحفرون قبرا جماعيا لجثث الشهداء الملقاة في الساحات وفي الأقسام وفي الطرقات، وتوقفت آلة الحرب المتوحشة للحظات وكأنها هدنة غير معلنة بتوقف القصف، والجميع خائفون من أن يغدر بهم الاحتلال، ويطلق النار فيحصدوا أرواح من خرجوا لدفن الجثث الملقاة بالخارج، فيستقروا بجوارها ولا يجدوا من يدفنهم.

لكنهم جازفوا بحياتهم، وتحول كثير من الأطباء والممرضين الذين ينقذون الأرواح إلى حفارين قبور يمسكون بالمعاول ويزيحون الرمال ؛ ليكرموا الأجساد بالدفن كما أكرموها حية بالعلاج.

توالت اللحظات العصيبة ؛ لتحطم أعصاب الجميع.

الكل مترقب يجلس على جمر القلق.

امتلأت أرجاء المستشفى بالدعاء سرا وجهرا.

الجميع يعرفون أن الاحتلال على وشك اقتحام المستشفى والتهديدات مرعبة.

وليس لها من دون الله كاشفة.

(10)

اقتحمت عشرات من جيش الاحتلال المجمع، وأثارت الذعر والفزع في نفوس الجميع وبدأت عملية تفتيش الأقسام والتحقيق مع الأشخاص بداخلها، وقدموا جنودا يتحدثون بلغة عربية أخذوا يصرخون في وجوه النازحين ويأمرونهم باستسلام كل من هم فوق 16 عاماً، وأن يرفعوا أيديهم فوق رؤوسهم ويخرجوا للساحة.

انتشر الفزع في كل من في المستشفى كالنار في الهشيم، وتراجع النازحون أمام الجنود يبحثون عن ملاذ أو جدار أو ركن يواريهم، واحتضنت الامهات من تبقى من صغارها وشد الأهالي على أبنائهم المرضى والمصابين يحاولون حمايتهم، وزاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر، والكل مترقب ينتظر ما سيفعله جيش الاحتلال بهم.

ولم يستطع الأطباء الوقوف بوجه ذلك الغزو الهمجي ؛ فوقفوا كلٌ في مكانه وموقعه وبين مرضاه وهم يرون الغزاة ينتهكون المستشفى ويدهسونها.

لقد كان الأطباء والتمريض والعاملون هم العمود الذي يرتكز عليه المستشفى، تحملوا كل شيء.

قسوة الإصابات وخطورتها تلك الإصابات التي لا يتحمل رؤيتها بشر وهي تتكرر أمامهم بأعداد لا حصر لها.

آلام الأمهات الثكالى وانهيار الاطفال الذين فقدوا كل أهلهم.

تحملوا ان يجروا العمليات بدون بنج ولا تخدير بسبب نفاد المستلزمات الطبية.

نسوا أهلهم وذويهم وحياتهم خارج المستشفى ، ونذروا أنفسهم ؛لإنقاذ اكبر عدد من الضحايا يستطيعوا إنقاذه.

كانوا شهودا على أنواع الاسلحة الفتاكة والقذائف المحرمة دوليا والتي تهتك أجساد البشر ببشاعة.

والتي يتم تجربتها لأول مرة على غزة ، ولا أحد يعلم مدى تأثيرها المدمر على حياة المدنيين وأجسامهم.

لكن لا يستطيعون تحمل موقف كهذا يستباح فيه المستشفى التي يبذلون أرواحهم لأجل أن تبقى من أجل المرضى والجرحى

وكأنهم فرسان قلعة سقطت بيد الأعداء وأصيبوا بهزيمة فادحة.

انزوى الطبيب ناصر في ركن الغرفة وأسند ظهره للجدار بتعب، وانزلق جالسا إلى الارض ، وأمسك رأسه بكفيه، كان يبدوأنه على وشك الانهيار، فهو لم ينم منذ أيام لا يعرف عددها.

اقترب منه أحمد وجلس إلى جواره على الأرض وقال: إن بقيت على تلك الحال؛ فسنخسرك، يجب أن ترتاح قليلا.

طال صمته، ثم قال بصوت ضعيف: لو أن النوم كان صعبا من

قبل،؛ فاليوم صار مستحيل، الأطفال في خطر محقق، ماذا لو أجبرونا على الخروج من المستشفى وهي خطتهم من البداية إخلاء المستشفى؟ الى أين نذهب؟، وكيف سنخرج الاطفال معنا؟!، وقد كان مجرد انتقالهم من مبنى لمبنى فيه خطر كبير على حياتهم وفقدنا منهم ثلاثة!!

رفع وجهه من بين كفيه ونظر نحو الأسرة التي تحوي الصغار واغرورقت عيناه بالدموع: سيقتلونهم.. رحمتك يا الهي بتلك الأرواح البريئة، اللهم لا تفجعنا فيهم.

قال أحمد – محاولا طمأنته ولو بالكذب– : لن يحدث، لن نسمح لهم

انضم لهما سعيد، ونزل على ركبتيه أمام ناصر وهتف بغضب: لن أترك هؤلاء الصغار أبدا، حتى لو قتلوني ألف مرة، لن أرحل عن هنا وأتركهم ليموتوا.

زفر عامر، وقال بيأس: في مستشفى النصر[1] أجبروا الأطباء على المغادرة تحت التهديد بالقتل وتركوا الأطفال خلفهم بعد أن تعهد الجنود برعايتهم.

(1) في 2023/ 11/ 27 تمكن مراسل قناة المشهد محمد بعلوشة من الدخول إلى مستشفى النصر للأطفال؛ ليتفاجأ بمشاهد صادمة لجثث أطفال متحللة في قسم العناية منع جيش الاحتلال إخراجها ودفنها.

صاح العم أبو خالد: هؤلاء لا عهد لهم، فهم ينقضون العهود كما أخبرنا ربنا جل وعلا ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:100].

أنا أيضا لن أترك هؤلاء الأطفال، حتى لو قاتلت العدو بيديّ فليس هناك ما أخشاه إلا حياة هؤلاء الصغار.

كنا نسمع ما يقولون وقلوبنا تنبض لهم بالحب والتقدير، هؤلاء الذين يرعون الله فينا ويخافون على حياتنا أكثر من أنفسهم.

قالت ياسمين - بصوتها الضعيف وهي تلهث- : أخبرتك قبلا أنك لم تخلق عبثا، في هذه الدنيا بشر يحبونك، وبقدر ما فيها من معاناة ستجد فيها حبا وسعادة، وبالتأكيد ستجد أمًا تحبك .

قلت - بيأس- : لا تستبقي الأحداث، فلم نواجه جيش الاحتلال بعد، هل رأيت كم يشعرون بالخوف مما سيفعله جنود الاحتلال! بهم وبنا إنهم يائسون تماما من أي حلول، سنموت بالقصف بالتأكيد كآلاف الأطفال الذين قتلهم جنود الاحتلال في غزة، لو لم يحدث ؛فسيكون بسبب ضعف أجسادنا الغير مكتملة والحصار المضروب علينا فلا أدوية ولا غذاء ولا ماء معقم، أو سيقضي علينا البرد، وحتى لو تجاوزنا كل هذا الموت من حولنا واستطعنا ان نحيا بضع سنوات أخرى، فسيستهدفنا الاحتلال برصاصاته، أو بصواريخه، أو يهدم البيوت على

رؤوسنا، فلماذا نتعلق بالحياة ونتمسك بها؟! ثم يخرجوننا منها رغما عنا، فإن كنا مقتولين لا محالة فليكن الآن لا غدا.

هتف رائد بصوته القوي: أنت كائن ضعيف مهزوم الإرادة وهذا سمت الجبناء، إن كل ساعة نبقاها في هذه الدنيا وعلى هذه الأرض تعنى أنهم مهزومون ؛ لأننا نحن أصحاب الارض.

قال عموري – بصوت مرتجف– : ليست أرضنا، لم تعد كذلك، إنهم الأقوى، فلنتركها لهم ونرحل، فأنا لا أريد الموت هنا، فليحملونا لخارج المستشفى بأية وسيلة، لحظة.. عليهم أن يحضروا لنا حضانات أولا وإلا سنموت بالخارج.

هتف رائد: اسكت أنت أيها القزم الذي لا أحبه، كلماتك تثير أعصابي فلا تضطرني للزحزحة نحوك فتطالك قدمي بركلة موجعة

قالت ياسمين – بأنفاس لاهثة– : لا تفقد الأمل، فحياتنا لا يعلم مصيرها إلا الله، تذكر أن كل انسان مهم وله دور مؤثر في حياة غيره، على الأقل حياة شخص واحد فقط.

قلت بألم: انظري كم طفلا مات في غزة بلا ذنب ودون أن يكبروا ولا يكون لهم دور مؤثر!! فلأكن واحدا منهم، فقد اكتفيت من تلك الدنيا الظالمة، ولا أريد أن أعيش على أرض مسلوبة ينتصر فيها الظلم ويهزم الحق.

قال رائد – بغيظ– : لولا أمثالك ؛ ما استطاع الظلم أن ينتصر، فالظالم يجب أن يجد من يوقفه ويدفع ظلمه ؛ ليكف، لكن الاستسلام للظلم يغري الظالم بمزيد من الظلم ويجعل الآخرين يتمنون أن يكونوا مثله، فبدلاً من ظالم واحد ؛ سيكون هناك ألف ظالم.

هتفت – بغيظ– : فليكن، أنا سبب كل المصائب وما دخلك أنت، فلأمت بسلام وكف أنت أيدي الظلمة ان كنت تستطيع.

قال: نعم سأفعل، بل أتمنى ذلك، أريد أن أكبر ؛لأقاتلهم وأخرجهم من أرضي وأرض آبائي وأرض أنبيائي.

وأنت، إن تكن تريد الموت؛ فليكن موتك ذا قيمة، إياك أن تموت هدرا بلا فائدة، فليكن موتك زلزالا فوق رؤوسهم ينتقم لموت أمك وأسرتك وموت كل مظلوم.

آلمني ذكر أمي، لو كانت حية ؛ لما كنت هنا الآن وحيدا خائفا يتربص بي الأعداء، ربما لكنت الآن في الرحم لا أدري شيئا عن الدنيا ولا أشعر ببرد ولا جوع ولا خوف.

ربما أتعجل الموت ؛ لألحق بأمي، فلا أحد لي بعدها؛ ليحميني ويرعاني ويغذيني، فماذا أفعل في الحياة من دونها؟!! الرحيل هو الأفضل لي.

لكن ياسمين كان لها رأي آخر، قالت بصوتها الضعيف: قلبي يشعر أن الله يدخر لنا الأفضل، وأننا سننجو من هذا الموقف الصعب.

سمعت صوت أنس يقول: أظن أن أسلم حل لنجاتهم هو أن نطالب الهيئات الطبية العالمية بأن يخرجوهم من المستشفى للعلاج في مصر عن طريق معبر رفح.

قال الطبيب ناصر: إدارة المستشفى خاطبت كل المؤسسات الدولية، والطبيب محمد لم يكف عن مناشدة العالم ؛ للتدخل لإنقاذهم، ونشر الأمر في كل وسائل الاعلام

قال العم أبو خالد: في كل حرب سالفة حضرتها كان المعبر هو المشكلة الكبرى، فهو دائما مغلق أثناء الحرب إلا مرة واحدة لم يغلق فيها في عام 2012، مما جعل الحرب تنتهي في غضون أيام قليلة.

قال أحمد: أؤيد رأيك، المعبر هو الحل الوحيد ؛ لإنقاذهم، علينا أن نتواصل مع السلطات المصرية لنقلهم عبر المعبر ليتموا علاجهم في المستشفيات المصرية

قالت ياسمين بصوتها الرقيق: أرأيت.. سيأخذوننا لمصر، سأعالج هناك، وسأشفى، وسأعود لغزة وقد صرت رضيعة طبيعية.

قالت جوري – بحماس– : نعم يا أختي العزيزة، ستشفين بإذن الله وسنرى مصر، انها كبيرة للغاية كما سمعت من أمي، فخالتي سافرت ؛ لتدرس فيها في الجامعة، كانت أمي تحدثها في الهاتف وسمعت خالتي

تقول إن كلية الطب التي تدرس بها قريبة من النيل، وهي تحب التنزه على شاطئ النيل.

قلت- بأسى- : أنتما لديكما خالة تدرس في مصر، وأنا لا أحد لي هناك، ولا حتى هنا، أنا بلا أم.

قالت جوري: أمي ستكون معنا وبالتأكيد لن تتركك وحيدا، إنها طيبة القلب.

قالت ياسمين: سندعو الله كثيرا أن تبقى معنا، وسنبكي لأمي ؛ لتأخذك، وربما تصبح أخاً لنا.

لم أرد على كلماتهما، كنت أفكر كثيرا، هل حقا يمكن أن تبتسم لي الحياة ويرزقني الله بأم وأسرة وأختين.

صاح رائد: أيها التعس، تقبل عطايا الله، وتعلم أن تغيظ الأعداء، هم يريدون لنا الموت، وعلينا أن نتحداهم ونتمسك بالحياة.

(11)

تأخر وصول جنود جيش الاحتلال إلى المكان، لم يهتموا بالخدج، فقد كانوا مشغولين بالبحث عن الشباب ؛ لينكلوا بهم، أما الخدج فما من خطر منهم، والحصار سيتكفل بقتلهم، فبقي كل من في الغرفة في حالة انتظار وترقب.

سادت حالة من اليأس التام نفوس الناس جميعا في المستشفى، وبقي كل في موضعه محاصر لا يستطيع حتى الخروج من قسم لقسم، وأخذ الماء الذي جلبوه للخدج والذي ينفد بسرعة، والحالات تسوء من شح الأدوية وبدأت تظهر عليهم أعراض لأمراض التلوث والماء الغير نظيف.

سأل سعيد العم أبا خالد: كيف كنتم تعيشون وأنتم تتحملون أذى تلك الكائنات البغيضة المجرمة يوميا على الحواجز وفي الطرقات؟!

قال العم أبو خالد: من أجل هذا بذلنا دماءنا ؛ليتحرر القطاع في 2005، إنهم المغضوب عليهم بنص القرآن.

ابتسم أنس وقال: أبي معلم لمادة التاريخ، ويؤلف كتبا؛ لتبسيط التاريخ للطلبة، حكى لي عن تاريخ اليهود الذي لا نعرف سوى القليل منه، هل تصدق أنهم في خلال الألف عام الماضية كانوا منبوذين

مطرودين من كل الممالك والدول وحدثت ضدهم مذابح، وكان آخرها معسكرات ألمانيا في الحرب العالمية الثانية؟!

قال أحمد: طبيعتهم المفسدة المتآمرة تجعل من المستحيل عليهم أن يعيشوا بسلام مع أي شعب.

قال أنس: لهذا تآمر العالم ؛ لإلقائهم في أرضنا كما لو كانوا نفايات يريدون التخلص منها، واصطادوا بذلك عشرة عصافير بقرار أممي واحد، والتفريق والإفساد بين الشعوب العربية وإضعافها، الاستيلاء على أفضل موقع استراتيجي على وجه الأرض، وأن يخفف الانجليز الكلفة الغالية التي يدفعونها بالاحتلال المباشر لأراضينا ؛فتركوا فيها من ينوب عنهم ويخمد الثورات العربية.

قال سعيد: إذا فالمقاومة لا تقاتل جيش الاحتلال فقط!! بل تقاتل وحدها أغلب دول العالم الذين يدعمونها بالسلاح والمال ويريدون أن يبقى الاحتلال رابضا في أرضنا.

قال العم أبو خالد: لهذا فعلينا مقاومتهم بكل ما نستطيع وإلى آخر نفس.

سأل الطبيب ناصر: ما الذي يحدث في الأقسام الأخرى؟

قال العم أبو خالد: اقتحموا مبنى الكلى والباطنة ويفتشونه،

ويأمرون الناس بالخروج، وأظنهم يفتشون القبو يقولون إنهم يبحثون عن المحتجزين.

قال أنس: تقصد الأسرى.

قال العم أبو خالد: نعم، هم يطلقون عليهم محتجزين.

تساءل سعيد: وما الفارق! المعنى واحد.

قال أنس: علمني أبي أن اختلاف الألفاظ يأتي من اختلاف القائل، فجيش الاحتلال يطلق عليهم محتجزين، مختطفين، رهائن؛ ليكذب وينفي عن نفسه واقع أنه جيش احتلال، ويحاول إقناع العالم أنه يحارب مجموعة من المخربين والإرهابيين لا حركات مقاومة مشروعة تطارد المحتل ؛ لتجليه عن أرضها، فتتحول القضية في نظر العالم إلى شأن داخلي خاص بدولة.

انتبه جيدا لحرب المصطلحات التي يستخدمها العدو؛ كي لا تقع فريسة للخداع.

صمت قليلا ثم سأله: لازلت لا تستطيع الاتصال بمخطوبتك؟

جرب سعيد مرة أخرى لكن شبكة الاتصالات مقطوعة، فهز رأسه بآسف والحزن يملأ قلبه.

جاءهم من يخبرهم أن جنود الاحتلال في طريقهم للغرفة، فهبوا

جميعا بتوتر وساد بينهم القلف، فحاول العم أبو خالد تهدئتهم ونبه عليهم لا يستسلموا ؛ لاستفزاز الجنود فهم سيتعمدون استثارة أعصاب الجميع.

أخذ رائد يتحدث إلينا ويحثنا على مقاومة الجنود وعموري يعترض كعادته: بأي شيء نقاومهم ونحن بلا حول ولا قوة، الأفضل أن نتظاهر بالنوم، أو ننام بالفعل ولا نستيقظ إلا بعد أن يرحلوا.

قال رائد: أيها القزم الذي لا أحبه، لا أريد أن أسمع لك صوتا.

قالت جوري: أريد كلاما واقعيا عمليا: ما الذي بيدنا لنفعله نحن الرضع والخدج؟ نحن بلا حول ولا قوة.

قال: يكفي أن نكشر في وجوههم أو نبكي ونصرخ.

إن صراخ الأطفال مزعج، يثير أعصاب الأمهات، فلنجربه مع هؤلاء.

قلت – بضيق– : ألا تشعر أنك غبي! أي صراخ هذا الذي نقاوم به الجنود! صراخ الخدج!

قالت جوري: بقينا لوقت طويل نصرخ ونبكي أمام الكاميرات والعالم كله شاهدنا وسمعنا وعلم بحالنا ولم يتحرك أحد.

قلت: لن يؤثر فيهم شيء، أتظنهم حقا يسمعون؟!!

قال: لا، لكن الله يسمع ويرى، فلنقم بما نستطيع ولنري الله من أنفسنا خيرا، فلنعلن رفضنا وكراهيتنا لهم، أصواتنا ستكون لعنة عليهم إلى يوم القيامة.

قال عموري: لن أفعل، سأتظاهر بالنوم حتى لا ينتبهوا لي.

قال رائد: لا أحب ذلك القزم، هذا هو المنتظر من جبان مثلك، فقط افهم ما سأقوله جيدا، صراخك لن يؤثر فيهم، بل هو لأجلك أنت، لأجل أن تكبر كبني آدم سوي كما خلقه الله، له عقل وإرادة وقادر أن يقول لا ويقاوم.

وصل جنود الاحتلال إلى قسم الخدج يحملون حضانتين، وقف الطبيب ناصر ينظر إليهم بغل وهو صامت تماما كاظم غيظه وكان أحد الجنود يتحدث العربية، فقال: هذه حضانات لأجل هؤلاء؛ لتعلموا أننا لسنا بلا قلب، ولن نترك تلك الكائنات تموت حتى لو كانت أولاد العماليق.

أحد الجنود اقترب من سريرنا وأخذ يتفحص فينا .

قال رائد: هل سمعتم؟! ينعتنا بالأولاد العماليق، سمعت من أخي الأكبر أنها تسمية يطلقونها على من يكرهونهم للإهانة، فلننفذ خطتنا الآن.

لا أدري كيف تأثرت برائد على الرغم من اقتناعي التام بعدم جدوى ذلك، بل ربما صرنا سخرية لهؤلاء المجرمين.

لكن نحن الأربعة انفجرنا في الصراخ في صوت واحد، رائد وأنا وجورى وياسمين، وتباعا باقي الخدج في كل الأسرة، كانت جوري تصرخ من الغيظ، فطبيعتها المعتزة بنفسها تأبى عليها أن تهان دون أن تقوم برد فعل، أما أنا فقد فوجئت بأن الصراخ بدل صوتي، فصار أعلى من ذي قبل ،ولم يعد يشبه نقنقات الدجاج، لكنه لم يصل بعد لدرجة صوت رضيع طبيعي، لكنني كنت سعيداً للغاية بأن هناك أمل أن أكبر وأتحسن.

أما ياسمين فلم تكن قادرة على الصراخ، لكنها حاولت بكل جهد وعزيمة ان تشاركنا وهذا ما شجعني على الاستمرار في مظاهرة الصراخ، أما عموري فقد نفذ ما قاله وتظاهر بالنوم، وكان تمثيله جيدا لدرجة أنني صدقت أنه نام بالفعل.

قرب الجندي وجهه منا يتفحصنا باستفزاز.

فزاد رائد من صراخه ، بل تمادى وأخذ يفرك في السرير ويحرك ساقيه بعنف حتى حل لاصق الحفاض وخلعه، ثم ألقى ببوله بكل عزم فتناثرت قطرات منه على وجه الجندي الذي تراجع باشمئزاز وأطلق سبابا.

لم أفهم فائدة ما فعلناه حتى قال أحد الجنود بانزعاج: أسكتوا هؤلاء الحثالة المزعجين.

صرخ رائد بكلام لم يفهمه غيرنا: بل أنت الحثالة، غدا سأكبر وأجتث رأسك يا محتل.

قال الذي يتحدث بالعربية للطبيب ناصر: فلتلتقطوا لهم الصور داخل الحضانات الجديدة، ولتخبروا العالم أننا لم نقتلهم كما تدعون، بل أمددناهم بما يبقيهم أحياء.

تقدم أحمد خطوة وهم أن يتحدث، لكن الطبيب ناصر أمسك معصمه ومنعه، لكن أنس اندفع يقول الكلمات التي كانت مدفونة في صدورهم، تحرقها بنيران الغيظ: أتظن أنهم تنقصهم الحضانات التي تمنون عليهم بها! القسم يمتلئ بحضانات على أعلى مستوى، لكنكم قطعتم عنها الوقود حتى صارت أسرة زجاجية بلا فائدة، وقد منعتم الأكسجين عن هؤلاء الخدج، وتلك جريمة شنيعة يعاقب عليها القانون الدولي.

إنهم لا يحتاجون لحضانات ولا أسرة، بل يحتاجون لوقود وأكسجين، ومن دونهما ستتحول تلك الحضانات إلى قبور لهم.

ترجم الجندي ما قاله أنس للغة العبرية، فتفحصه قائدهم ملياً، ثم

قال كلمات ترجمها الجندي لهم: هل أنت طبيب تعمل في هذا المستشفى يبدو لي أنك صغير السن.

أجاب أنس: أنا طالب طب وأتدرب هنا.

قال قائدهم: إذا فنظرتي في محلها، عمرك وجسدك الرياضي وعضلاتك المفتولة تظهر بوضوح أنك لست طبيبا، ربما أنت من المخربين وتتستر بهوية طبيب وتختبئ هنا حتى لا يكشفك أحد.

اندفع العم أبو خالد يصيح وقد فهم المؤامرة التي تحاك لأنس: كلامه صحيح، أنا شاهد على ذلك، فهو يتدرب في المستشفى منذ العام الماضي وهو لا يزال طالباً في مساق الطب.

تجاهل قائدهم كلمات العم أبي خالد، وأشار إلى جنوده أن يمسكوا بأنس.

حاول الطبيب ناصر الاعتراض، لكنهم وجهوا فوهات مدافعهم للجميع، وصاح قائدهم بتهديد: لا يتحرك أحد وإلا قتلته أمامكم هنا.

أسر الجنود أنس ورحلوا وتركوا القهر والحسرة مسجونة في قلوب الجميع.

قال العم أبو خالد- بقهر- : يدعون كذبا أن المقاومة تستخدم المستشفى لأغراض عسكرية وأن مركز قيادتها في نفق تحت المستشفى.

ليت الكذبة كانت حقيقة، لما استطاعوا أن يأسروه ،ولا أن ينتزعوه من بيننا بتلك الطريقة البشعة ومن دون مقاومة.

لم يكن أسر أنس آخر النكبات، بل كان واحداً من سلسلة نكبات بلينا بها منذ وطئت أقدام الغزاة المستشفى.

تفقد الطبيب ناصر ومعه الطبيب أحمد الأطفال، لنفاجئ بالصدمات تتوالى؛ فالقزم الضئيل الذي لا يحبه رائد كما يقول، لم يكن يتظاهر بالنوم كما أخبرنا، بل فارق الحياة هو وأحد الخدج على سرير آخر.

وبرغم أنه لم يكن يحبه أحد منا، لكننا أسفنا جميعا لموته بتلك الطريقة، وحملته أمه وانهارت في البكاء بحزن شديد.

وقالت جوري: ربما مات من الرعب، أسفي على أمه، يؤلمني حزنها، غزة كلها صارت ثكلى.

ثم فجعنا بياسمين وقد ساءت حالتها وازرق لون جسدها، وانشغل بها الطبيب ناصر وأحمد يحاولون جهدهم إسعافها واجراء التنفس الصناعي لها.

قاومت ياسمين لفترة طويلة، كانت أكثر شجاعة منا جميعا وأشدنا تمسكا بالحياة برغم ضعف جسدها الشديد، وبعد ساعات تمتلئ بالقلق والترقب والمحاولات المستميتة من الطبيبين المناضلين ؛ لإسعافها،

أسلمت الروح لبارئها وتركت قلوب كل من في القسم من كبار وصغار تمتلئ بالحسرة والألم وهم يرسلون اللعنات وتصعد الدعوات للسماء بالانتقام من المجرمين الظالمين الذين تجبروا في الأرض، ويصرخون بحسبنا الله ونعم الوكيل.

(12)

صمت الكبار، لكن الخدج انفجروا في البكاء حزنا على ياسمين التي ألقى الله محبتها في قلوب الكبار والصغار، حتى رائد بكاها بقهر وغضب عارم، وأقسم أنه عندما يكبر سيدفع الاحتلال ثمن تلك الارواح البريئة التي ماتت بلا ذنب سوى أنها تطالب بالحرية، وتعهد أنه سينتقم لها.

كانت جوري تبكي وتصرخ لدرجة أن العم أبا خالد قال ودموعه تسيل: المسكينة تشعر بأختها، يقولون أن التوأم يشعرون ببعضهم البعض.

كان سعيد يبكي بقهر حزنا على تلك الصغيرة التي أحبها، ويتخيل كم ستكون محبته لطفله لو صار أباً وأنجب طفلا من ريم، وكم سيتألم لو قدر الله وفقده، وبكى عامر وهو ينعي الصغيرة في تسجيل صوتي على جواله.

جلس الطبيب ناصر على كرسي في ركن الغرفة يسند مرفقيه إلى ركبتيه ورأسه بين كفيه، ودمعه لا يتوقف، كان قلبه يعتصر ألما مع كل طفل يفقده، وأحمد يقف بجواره مطأطأ الرأس حزين يحاول أن يكفكف دمعه، ولا يجد كلمات يواسيه بها، إنما كل ما كان يخشاه هو

أن ينهار أستاذه ويخسر الأطفال راعيهم، ومن وجهة نظره أن الحفاظ على أستاذه هو إنقاذ لحياة ما تبقى من أطفال في القسم وهذا هو واجبهم الآن.

وقف العم أبو خالد أمام جثمان الصغيرة وأخذ يلفه بالقماش الأبيض ببطء وقلبه مفطور من الحزن، كان يحاول جاهدا أن يحبس الكلمات في صدره حتى لا يحرق بها قلوب من حوله، لكنه لم يستطع، فخرجت تلقائية رغما عنه تكوي فؤاده نارا: كنت أصر أن احضر لها الدواء حتى لو قتلوني ومثلوا بجسدي، أحببت تلك الحورية من الجنة وتمنيت أن أراها تتماثل للشفاء كما لو كانت حفيدتي التي أنتظر يوم مولدها.

انهار في البكاء والنحيب؛ فأبكى كل من في المكان، ثم تماسك قدر ما يستطيع وكفكف دمعه، وأخذ يلف حولها الكفن وقال: الجميلات أمثالك لا يليق بهن أن يلبسن الأبيض إلا ثوب زفاف، ليتني مت قبل أن ألبسك بيديّ الأبيض كفناً لمثواك الأخير يا صغيرتي.

صدقت الشهيدة ياسمين، فلكل انسان قيمة ودور في الحياة وهو مؤثر حتى لو كان أثره في شخص واحد فقط.

كانت حياة ياسمين القصيرة ذات أثر عظيم في الأشخاص القلائل الذين عرفوها، وأنا منهم.

واصلت الصراخ ليلة كاملة حزنا عليها، وهم يظنوني أشعر بالبرد والجوع، أو لدي ألم في جسدي، لكن الحقيقة هي أن روحي تحطمت بموت ياسمين.

لم تكن مخلوقة عادية، بل أملا غُرِس في فؤادي ؛أحيا تعلقي بالحياة من جديد

ثم ها هي تتركني وحدي في الحياة وترحل هي عنها.

كلما تذكرت كلماتها عن أمها ،وأنني يمكن أن يكون لي أما بديلة ترعاني، وأهل يحتضنوني؛ أزداد حقدا على الاحتلال، فلو لم يكن هناك احتلال لما ماتت ياسمين خديجا، ولبقيت غزة آمنة من القصف والدمار، ولكانت أمي حية.

وصل الطبيب محمد مدير المستشفى إلى الغرفة ،وأخذ يتناقش مع الطبيب ناصر: الجنود سمحوا لي بالتنقل والتحدث إليكم، جيش الاحتلال يصر على إخلاء المستشفى، ويهدد كل من يرفض الخروج، النازحين بدأوا بالخروج بالفعل، ماذا قررتم، هل ستغادرون؟

قال: مستحيل أن أترك الصغار، وأنجو بنفسي من دونهم، فليجري علي ما يجري عليهم.

قال المدير: تفاوضت معهم بشأن الخدج، يقولون إنهم سيتولون رعايتهم حتى يسلموهم للصليب الاحمر.

هتف سعيد: لن نترك أطفالنا بيد الأعداء، سأبقى معهم إلى أن أسلم كل طفل بنفسي لأهله، فليقتلوني أو يعتقلوني، لن أرحل.

قال العم أبو خالد: هؤلاء لا عهد لهم ولا أمان، قد يرتكبون جريمة في حق هؤلاء الأطفال ،ولن يدري بها أحد إذا ما تركناهم لهم.

نظر المدير للطبيب أحمد وسأله: وأنت ما رأيك، هل سترحل مع النازحين؟ ، لا تثريب عليك فالأمر فوق طاقتنا جميعا.

قال أحمد: انا مع أستاذي حيث يكون، لكنكم نسيتم شيئا هاما

تعلقت به أنظار الجميع، فأكمل: المشكلة ليست فيمن يبقى ومن يرحل، المشكلة الآن في هؤلاء الصغار، يحتاجون لرعاية طبية عاجلة في مكان آمن، حالتهم في تدهور مستمر وكل عدة ساعات نفقد منهم واحد، والماء صار ملوثاً ولديهم حالات قيء واسهال لابد أن نفكر في حل ينقذهم.

قال المدير: لم أكف عن الاتصال بالهيئات الإغاثية ولا بالصليب الأحمر، والمنظمات الطبية العالمية وتحدثت في عدة قنوات فضائية وطالبت بتدخل العالم لإنقاذ هؤلاء الصغار، لكن لا حياة لمن تنادي، وكأن العالم كله اتفق على هلاكهم.

منذ أربعة أيام أخاطب السلطات المصرية؛ لنقلهم الى المستشفيات المصرية ؛ليتم علاجهم هناك، وحتى الآن لم أتلق أي رد.

قال الطبيب ناصر: الله المستعان، هو من خلقهم وهو من يتولاهم، أما أنا فسأبقى معهم الى أن يأتي الله بالفرج لهم ولي ولنا جميعا.

قال أحمد: هل هناك أخبار عن أنس؟

هز المدير رأسه- بأسف- : آخر ما وصلني من أخبار عنه أن الجنود اقتادوه هو ومجموعة كبيرة من النازحين، ربما مئتين أو يزيد، واحتجزوهم بضع ساعات في قبو المستشفى وجردوهم من ملابسهم وعصبوا أعينهم، واعتدوا عليهم بالضرب، ثم أخرجوهم في طوابير وساقوهم إلى خارج المستشفى ولا أحد يعلم الى أين أخذوهم.

قال ناصر: اللهم لا حول ولا قوة الا بالله، كيف حال المرضى في بقية الأقسام؟

قال بأسف: فقدنا أكثر من ٥٠ مريض، أغلبهم من قسم الرعاية بسبب نفاد الاكسجين، وبعضهم من قسم الكلى ؛ لتوقف أجهزة الغسيل، وقررنا أن ندفنهم في مقبرة جماعية في ساحة المستشفى هم ومن سقطوا قرب البوابة منذ أيام، والعاملون والأطباء يقومون بذلك الآن.

ولكن سيفقد الكثير من المرضى حياتهم في الطريق بعد أن طردهم الاحتلال من المستشفى ، ولن يجدوا مكان يذهبون إليه ؛ لتلقي العلاج الضروري، فقد دمروا أغلب المستشفيات.

سأله أحمد: هل سترحل؟

قال بتهكم مرير: إنا باقون، ما بقي الزعتر والزيتون*(كلمة شهيرة للشيخ رائد صلاح).

ثم أكمل بأسف: لازال بالمستشفى أكثر من سبعمئة جريح وذويهم والطاقم الطبي.

الكثير من مرضى الرعاية حالات صعبة جدا، سيموتون لو غادروا أسرتهم، وهناك مرضى في باقي الأقسام لا يستطيعون الحركة، وما كنت لأقفز من السفينة الغارقة وأدعهم وحدهم في مواجهة الجنود.

قال أحمد: لا أدري ما سيحدث في الساعات القادمة، ولا ماذا سيكون مصيري؛ لذلك أود أن أعرب لكم جميعا عن شكري وتقديري، الأيام التي قضيتها هنا في المستشفى ما كانت لتمضي ؛لولا سعيد والعم أبو خالد.

وددت أن أقول إن أفضل ما يناله أي طبيب هو أن يعمل مع أستاذين رائعين مثلكما يتعلم منهما كيف تكون المسئولية الحقة تجاه المرضى، وكيف يراقب الله في مهنته، ويقدم ضميره المهني على حياته لو استدعى الأمر.

نظر الطبيب محمد حوله بحسرة وقال بأسف: تلك المستشفى

العظيمة، عمرها أقدم من عمر دولة الاحتلال، فقد تم إنشاؤها عام 1946.

وبعد أن تحرر القطاع، صار مجمع الشفاء قلعة نضال لكسر الحصار، استضاف وفود كسر الحصار، وعقد مؤتمرات عديدة ؛ لكشف جرائم الاحتلال، وكان دائم التواصل مع المنظمات الدولية، يؤسفني أن يصل الحال به إلى ما نحن فيه الآن.

قال العم أبو خالد: لو نطقت الجدران؛ لحكت تاريخ غزة كله في الثمانين عام الأخيرة، يقيني في الله أننا سنعود نحن وأبناءنا ونبنيه من جديد ونصلح كل شيء.

مضت الدقائق التالية أشبه بحفل شكر وامتنان بين الجميع مع الدعوات بالنجاة.

رحل الطبيب محمد وأخذ الجميع يتشاورون فيما سيفعلون بجثامين الصغار، واستقروا على دفنها في المقبرة الجماعية في ساحة المستشفى، فلا أحد يعلم متى تنتهي الحرب ،ولا حال أهلهم أحياء أم استشهدوا، ومهما حدث ؛ فلن يتركوا جثثهم للتحلل دون دفن.

حمل سعيد والعم أبو خالد جثث الصغار وذهبوا ؛ ليدفنوهم في الساحة.

لكن سعيد عاد بعد عدة ساعات والعم أبو خالد لم يعد وعندما سألوه عنه ؛ أخذ يحكي ما حدث في ساحة المستشفى وهو يرتجف: كان العم أبو خالد يحفر مع الشباب ويجهز موضع في المقبرة الجماعية للأطفال، وأنا أراقب آلاف النازحين يخرجون من بوابات المستشفى هائمين على وجوههم، منهم من يمشي، ومنهم من يسنده من حوله، ومن يجلس على كرسي متحرك، ومنهم من يجر سرير بعجلات يرقد عليه مريضهم الذي لا يستطيع المشي ، ولا أحد منهم يدري إلى أين يذهبون ،ولا ماذا سيفعلون؟!، لكن أوامر جيش الاحتلال كانت أن يرحلوا إلى الجنوب، وفهمت أن كل الطرق كانت مغلقة بحواجز ويقيم فيها جيش الاحتلال حواجز ومتاريس إلا الطريق المتجه للجنوب ، والذي أجبر النازحين على السير فيه.

ساحات المستشفى تمتلئ بالجنود المدججين بالسلاح والمنتشرين في كل مكان حولنا، ولا أحد منا بقادر على أن يفعل شيئا ولا أن يقول شيئا.

حتى أتت سيارة كبيرة ،وسحب الجنود مجموعة كبيرة من الجثث ووضعوهم على السيارة، وحاول أحد الجنود أن يسحب جثة الصغيرة، لكن العم أبو خالد انكب عليها واحتضنها ورفض أن يتركها لهم.

تساءل الطبيب ناصر بوجل وماذا فعلوا به؟

نظر له سعيد بعينين دامعتين وقال بحسره: أطلقوا عليه رصاصاتهم؛ فسقط في الحفرة التي كان يحفرها للصغار فدفنه الشباب معهم.

هتف الطبيب ناصر : وما الذي يريدونه من جثث الشهداء؟! لماذا أخذوها؟!

قال عامر بقلق: أخشى أن..

تردد قليلا ،ثم قال: منذ فترة تم الكشف عن أكبر بنك أعضاء في إسرائيل.

قال أحمد: لن يستفيدوا شيئا من الأعضاء الداخلية ؛ فقد مضت ساعات على موتهم.

قال عامر: يحتاجون للجلد والقرنية.

انخرط سعيد في البكاء، فبرغم كل ما مر به ؛ لازال يفاجئ بأن البشاعة لا حدود لها على الأرض.

منذ موت ياسمين ولم أكف عن البكاء، ولم أتحمل موت العم أبي خالد ذي القلب الكبير، والذي أحبه الصغار قبل الكبار، كان يحب الخدج ويحكي لهم الحكايات، لا عجب أن يضحي بحياته لأجل ألا يأخذ المحتلون المجرمون جثة ياسمين ويدفن معها في نفس المقبرة الجماعية.

(13)

كانت جوري تبكي كثيرا، فقد صارت شديدة الحساسية منذ وفاة توأمتها ياسمين، وبكت العم أبو خالد الذي أبى إلا أن يحمي أختها لأخر لحظة في حياته ،واستشهد حتى لا يختطف جنود الاحتلال جثتها، أما رائد فلا زال يقسم أنه سيكبر وينتقم لأرواح كل الشهداء وخاصة العم أبو خالد.

أخذت أفكر كثيرا في كلماته التي لا يكف عن ترديدها لا يردع الاحتلال إلا مقاومة.

الظالم لو لم يجد من يوقفه؛ لاغتر بظلمه وافترى ،ولأغرى ألف ظالم غيره؛ ليفعل فعله.

استطاع الطبيب محمد أخيرا أن ينسق مع الهيئات الدولية ، وتم السماح للهلال الأحمر الفلسطيني بالتدخل لإخراج إحدى وثلاثين خديجا من مستشفى الشفاء، والتي تحولت إلى منطقة موت كما صرحت منظمة الصحة العالمية.

الرقم صحيح، هو رقم الخدج الناجين الذين أفلتوا من كل طرق القتل الممنهج والمقصود والتي سلطها الاحتلال على المستشفى والمرضى والطواقم الطبية والنازحين والخدج على وجه خاص.

لقد نجونا من القصف والتفجيرات، ومن القنص ومن الحرمان من الأكسجين ،ومن منع الماء النظيف مما تسبب في تلوث غذائنا، ونجونا من نقص الدواء الضروري ومن نفاد المستلزمات الطبية التي نحتاجها، لنتناول غذائنا ودوائنا.

ونجونا من التأخر المتعمد في إنقاذنا ونقلنا لمستشفيات أخرى بها مقومات العلاج، فقد قضينا تحت حصار قاتل حوالي الأسبوعين.

وحضرت سيارات اسعاف تابعة للهلال الأحمر الفلسطيني بها حضانات مجهزة وضعونا بها تحت اشراف الطبيب ناصر الذي كان يتابع بنفسه كل شيء خطوة بخطوة؛ ليطمئن على سلامتنا، وأننا نتلقى الرعاية الطبية الصحيحة، و انطلقت السيارات إلى المستشفى الإماراتي في جنوب رفح ؛تمهيدا لنقلنا إلى مصر عبر معبر رفح، ورافقنا سعيد هو وأحمد الذي حمل معه الأوراق والبيانات والملفات الطبية الخاصة بتفاصيل كل حالة وما يلزمها من علاج، وتلقى كل التعليمات الطبية من الطبيب ناصر الذي ودعنا بدموعه وهو يقول لنا: لن أنساكم يا صغاري، ستبقون دائما قطعة غالية من قلبي وذكرياتي، كنتم خير رفقة لي في أصعب الأيام، لكنني سعيد بأنني أكملت رسالتي وأخرجتكم من هنا الى بر الأمان .

قرب وجهه مني، ومسح على رأسي بأصابعه الحانية وابتسم ، ورأيت

الدمع في عينيه: وأنت أيها الكائن الجميل المولود في السابع من أكتوبر، صرت على وشك الخروج من مرحلة الخديج.

بدأت تتماثل للشفاء وصرت أكبر وأقوى وأكثر قدرة على التحمل وتغلبت على كل ما مر بك، روحك روح مقاتل لا يستسلم، لولاك ؛ لما استطعت أن أتماسك وأثبت إلى الآن.

لم يصبح لك اسم بعد، لكنك ستغادر غزة للعلاج، وأتمنى من كل قلبي عندما يحين وقت عودتك أن تكون الحرب قد توقفت، وتعود لوطن بلا محتل.

أحاطنا بنظراته الحانية، ثم قال: أسأل الله أن يحفظكم وينجيكم من كل سوء.

انطلقت بنا سيارات الإسعاف المجهزة إلى رفح، واستقر بنا الحال في المستشفى الإماراتي، وكنت مطمئنا ؛ لتواجد سعيد إلى جواري ومرافقتي في رحلتي إلى مكان غريب لا أعرفه.

قسم الحضانات هنا غير مجهز لاستقبال عددنا الذي يبدو كبيرا، لكنهم استطاعوا أن يحتوو الامر واستقر كل ثلاثة منا او أربعة على الأسرة الصغيرة والحالات الصعبة داخل الحضانات المجهزة.

يبدو أن قدري قد ارتبط بقدر ذلك المشاكس الذي لا يعجبني،

ولا يكف عن الشجار، وكأن جيناته تحمل خلطة توابل حارة، لقد وضعوني أنا ورائد في سرير واحد، وجوري كانت في السرير المجاور، صوتها يذكرني بياسمين التي تركناها هناك في ساحة مستشفى الشفاء، أحيانا يهيئ لي أن مستشفى الشفاء هي بيتي الذي لا أعرف مكان آخر أنتمي اليه سواه، ولا أثق ببشر سوى هؤلاء الذين يعملون هناك، سعيد والطبيب ناصر وأم أويس والطبيب أحمد والطبيب محمد مدير المستشفى، وعندما تنتهي فترة علاجي في مصر ويعيدونني الى غزة فلن أعيش في مكان آخر سوى مستشفى الشفاء، فهي المكان الوحيد المألوف لي من العالم والذي أشعر بالأمان فيه.

بعض الأمهات كن يتابعن رحلة خروج الخدج من المستشفى وحتى وصولهم للمستشفى الإماراتي، وتوجهوا إلى رفح ؛ ليلتقوا أطفالهن، وكان لقاءاً عاطفيا جميلا ؛ أثار شجوني، هؤلاء لهم بيت وأهل وأم، سينتهون من فترة علاجهم في مصر؛ ليعودوا بعدها إلى البيت مع أمهاتهن، وأنا لا أم لي ولا بيت، ولا حتى اسم، لكنني أعرف جيدا أن لي أرض، لي وطن أعود اليه حتى لو كان خرابا، لكن يكفي أنه موجود، يكفي أنه أرضي ووطني.

سألت رائد: سعيد أنك ستذهب الى مصر؟

قال بصوته المزعج العالي: لن أذهب إلى مصر، علي أن أكبر في غزة؛ لأحقق انتقامي من المحتل الذي قتل أهلنا.

قلت -بدهشة- : هل تمزح؟! ليس لك الخيار، فالجميع سيذهبون للعلاج في مصر، ألم تسمع ما قاله الأطباء! كلنا نحتاج للعلاج ومصابون بجفاف و بجرثومة انتقلت الينا من الماء الغير نظيف الذي لم يكن هناك سواه، وبعض الخدج مصابون بتسمم الدم.

قال: يريدون زحزحتنا عن أرضنا ولن يستطيعوا، حتى لو كلكم ذهبتم أنا سأبقى، فأنا لست خديجا، أنا قوي وأتماثل للشفاء بسرعة، من لا يزال خديجا ويحتاج لعلاج وأجهزة وتغذية خاصة هو فقط من سيذهب، أما من تستجيب حالتهم للدواء ويتماثلون للشفاء ويتناولون طعام الرضع؛ فلن يسافروا إلا لو طلب أهلهم السفر لهم.

قلت: وما أدراك أن أهلك لن يطلبوا ذلك.

قال: وأين هم أهلي! أنا لا أدري حقا هل صاروا جميعا شهداء أم أن أحد منهم لا زال على قيد الحياة؟!

صدق رائد في كلماته، فلم ينتقل إلى مصر إلا ثمانية وعشرون طفلاً فقط رافقهم الطبيب أحمد، وأغلبهم يعالج في مستشفى العريش والحالات الحرجة انتقلت إلى مستشفى في القاهرة.

وبقيت أنا ورائد وجوري ومعنا سعيد في المستشفى الإماراتي برفح، فقد جاءت أم جوري أخيرا لتلتقي طفلتها في المستشفى، كان اللقاء مختلط المشاعر ما بين حزن وأسى وألم على فقد ياسمين، وبين فرحة طاغية بعودة جوري لأحضان أمها.

كانت أم جوري جميلة ويبدو عليها الطيبة، عادت بي الذكريات إلى مجمع الشفاء حيث دفنت ياسمين هناك، وتخيلت لو أن أم جوري قبلت بأن ترعاني، واستمتعت بأطياف الحلم قليلا حتى رحلت جوري وأمها وتركت في قلبي الحزن وألم الضياع، سأشتاق إلى جوري ورائحة الحفاضات المعطرة والتي تذكرني بياسمين.

سرعان ما ظهر عم لرائد سمع بقصة مستشفى الشفاء، وعرف أن رائد نقل إلى المستشفى الاماراتي ؛فجاء إلى رفح ؛ليأخذه ؛ ليعيش معه بعد أن فقد أهله جميعا، سألته قبل أن يرحل مباشرة: هل تعتقد أننا قد نلتقي ثانية في غزة؟

قال: بالتأكيد، فغزة أرض صغيرة تحوي عزائم كبيرة، ولو كانت أفكارنا متقاربة وهدفنا واحد؛ فسنلتقي .

لم يتبق أحد ممن أعرفهم سوى سعيد، وصدمت عندما علمت أنه اتصل بأحد أقرباء مخطوبته ريم، فأخبره أن ريم حية، لقد نجت هي وأخوها الصغير فقط من بين عائلة كبيرة دفنت تحت ركام منزلهم، وكم

كانت فرحته عارمة بذلك الخبر!، وتركني وترك كل شيء وذهب؛ ليلتقيها في مخيمات رفح التي نزحت إليها مع النازحين إلى الجنوب، سعيد لم يتبق له في الحياة سوى ريم وأخيها، ولم يعد لهم مكان يؤويهم سوى خيمة في رفح، لا يعرف كيف سيكون المستقبل؟!، ولا متى ستتوقف الحرب؟!؛ لذلك فقد قرر سعيد ألا يؤجل زفافه، ويكون هو وريم الأسرة التي يحلمان بها في خيمة من خيم النزوح.

(14)

عاد سعيد من عند مخطوبته سعيدا، بل طائراً على أجنحة السعادة، فمن بين كل هذا الألم والدمار لازال هناك أمل وحب ومستقبل.

لكنني كنت حزين للغاية؛ إذ كيف لي أن أبقى وحيدا من دون سعيد؟!، وما الذي سيحل بي لو تركني وتزوج؟!، لقد بقي معي على أمل ان يظهر أحد من أهلي ،أو يمد أحد لي بطوق نجاة ويتولى رعايتي، لكن من ذا الذي سيثقل ظهره بالتفكير في طفل مجهول بلا اسم، ضاع أهله جميعا بسبب الحرب.

كان سعيد ينظر لي بأسى، أرى في عينيه حيرة كبيرة، فهو لا يود أن يفارقني حتى يطمئن علي، وفي نفس الوقت يريد الذهاب إلى ريم؛ ليمارس مسئولياته كرب أسرة مسئول، ويرعى أهله ويبني أسرة.

الآن صرت كبيرا وعلي أن أكون شجاعا، فقد أصبحت أتناول غذاء الرضع بفمي وكوَّن جلدي الدهون وصار يدفئني، وشفيت من الجرثومة بالدواء والرعاية، لكنني حزين للغاية، فسعيد سيفارقني وأبقى وحيدا، وبعد أن انتقل الخدج الثمانية والعشرون إلى مصر ؛ لتلقي العلاج وانتهت مشكلتهم، انفض الإعلام الذي كان يتابع قصتهم، واتجهت القنوات الفضائية ؛لعرض قضايا أكثر سخونة ونسي الجميع قصتنا المأساوية.

كانت نوبات بكائي تزداد، كنت أبكي بلا سبب عضوي، بت على

يقين بأن سعيد بمجرد أن يرحل ؛فسأصير نسيا منسيا ، ولن يتذكرني أحد، وربما وضعوني بعد الحرب في إحدى دور الأيتام لأكبر يتيما بلا أهل ولا اسم وربما بلا وطن.

سأنسى كل شيء بعد أن تنتهي مرحلة الرضاع، سأنسى ياسمين، وجوري ورائد وعموري، سأنسى الطبيب ناصر وأم أويس وأحمد وأنس وعامر وسعيد والطبيب محمد.

سأنسى مستشفى الشفاء.. ولكن هل سأنسى غزة!

كلا.. ان معي ربي سيهدين.

إن كان البشر ينسون؛ فرب البشر لا ينسى، هو من خلقني وسيصلح لي شأني، أصدق أنني خلقت لغاية لا يعلمها سوى الله مدبر الكون، وعلي أن أسعى؛ لأكون مؤثرا في أي مكان أكون فيه.

لم تمض سوى فترة قصيرة حتى أتتني مفاجأة مذهلة سعت إليَّ حتى سريري الصغير.

ما كنت لأصدق ما أراه بعيني؛ لقد أتى سعيد بأم أويس.

فرحتي العارمة برؤيتها أعطت لجسدي طاقة من السعادة تحرك ذراعيي وساقيي بطريقة سريعة عشوائية مع كثير من أصوات الرضع المرحة.

ضحكت أم أويس من بين دموعها وقالت: إنه سعيد برؤيتي، ترى هل لا يزال يتذكرني!

وعلمت من حديثهما أنهما التقيا عند مكتب الاستقبال في هذه المستشفى مصادفة، فقد حملت طفلا مريضا من المخيمات في رفح وأوصلته الى المستشفى؛ ليتلقى العلاج، فبرغم مصابها الأليم في ولديها وعدد من أفراد أسرتها؛ لازالت الممرضة الماهرة الحنون تمارس دورها في مساعدة الناس والتخفيف من آلامهم، أينما حلت في مكان؛ حكت لسعيد أنها بعد دفن ولديها وأختها وأولادها ؛ كانت تسعى للعودة إلى المستشفى بكل طريقة، لكن الاحتلال كان قد أحكم الحصار حول المستشفى والمنطقة وكل الطرق المؤدية إليها، ولم يعد هناك طريق متاح سوى الطريق المتجه للجنوب، فنزحت مع النازحين.

أخبرها سعيد بما حدث للخدج، وحكى لها أنه لم يتبق سواي، ولا يعرف أين يذهب بي ولا إلى أين سيأخذونني.

لقد صرتُ مشكلة كبيرة حتى للمستشفى التي أخذوني إليها، فبعد أن شفيت ، يجب عليهم إخلاء مكاني لمريض يحتاج علاج.

رحلت أم أويس وهي تبكي تعاطفا مع حالي، فقد صرت ضائعا في دروب الحياة ولا مصير واضح لي.

وبقيت في سريري أنتظر الى أين سينقلونني ومن سيتولى أمري، هل يسلمونني للهلال الأحمر؛ ليجد لي مكان في دار للأيتام، أم لهيئة إغاثية، أم يرسلونني إلى مصر.

كانت المشكلة الأكبر هي أنني بلا اسم ولا أوراق هوية، لكنني بت أكثر ثقة بربي وأنه لن يضيعني.

في مفاجأة غير متوقعة، عادت أم أويس للمستشفى.. لكن هذه المرة عادت من أجلي، لقد قررت أن تأخذني ؛ لأبقى معها، سمعتها تقول لسعيد: إنه أحد أطفالي، تلقيته خديجا، وقضيت معه وقتا طويلا أرعاه وأغذيه، لن أتركه يضيع، فهو ابن هذه الأرض ويجب أن يبقى ويتربى فيها، ولعل الله يعوضني به خيرا.

تذكرت مقولة جوري وياسمين: اليتيم سيجد له ألف أم من أمهات غزة، فنساء غزة يجدن فنون الأمومة.

في مكتب الاستقبال كانت تحملني وتقف أمام الموظفة التي كانت تملأ الأوراق وتسجل البيانات، فسألتها الموظفة: ماذا أكتب في خانة الاسم؟

صمتت أم أويس تفكر، وأخذتها الحيرة، لا تدري ماذا تسميني، فظنت الموظفة أنها مترددة في أخذ الطفل وتخاف من تحمل مسئوليته، فقالت تطمئنها: لا تقلقي سيبقى كالضيف في بيتك حتى انتهاء الحرب، وبعدها يمكنك أن تسلميه لجمعيات أهلية تتولى أمره.

نظرت لي أم أويس وضمتني إلى قلبها وابتسمت وقالت: حسنا، اكتبي اسمه ضيف.

ابتسمت الموظفة من طرافة الاسم وأكملت الأوراق، وحملتني أم أويس وخرجت من المستشفى، وأصوات صواريخ عالية تدوي في أذني.

وقفت أم أويس تنظر للسماء، فتعلقت نظراتي بالخطوط البيضاء الطويلة التي تملأ السماء، ابتسمت أم أويس وتمتمت بصوت خفيض لم يسمعه غيري: صواريخ أبو أويس.

ثم نظرت في وجهي وابتسمت: بشرى أيها الضيف، لازالت المقاومة تطلق صواريخها من شمال غزة، أسأل الله أن ينصرهم ويسدد رميهم.

بقيت مع أم أويس في المخيمات وكان فضل الله علي عظيما، فقد رزقني بأم تحتضني وترعاني، وتعرف قصتي، وستحكيها لي إذا ما نسيتها.

أم بالرضاعة، فأم أويس تحمل جنينا في شهره السابع سيكون لي أخ بالرضاعة، ولن أبقى وحيدا في الدنيا.

بعد خروجي من المستشفى بأسبوع، سمعت من أم أويس أخبار ما فعلوه بالمستشفى، ومن بقي فيها.

أخرجوا الجرحى وسلموهم للصليب الاحمر، وفجروا القبو الذي يدعون أنهم وجدوا به نفقاً، وفجروا مستودع الأدوية والصيدلية.

أما الطبيب محمد مدير المستشفى ؛ فقد تم أسره.

يعاقبونه؛ لأنه رفض أن يترك المستشفى ومرضاه يموتون؛ لينجو

بنفسه، بل بقي معهم؛ إذ لم يستطيعوا إجباره على المغادرة ولا تخويفه، فأسروه؛ ليزيحوه من طريقهم.

إلى هنا وانتهت حكاية يومياتي كخديج، فقد كبرت وصرت رضيعا وبعد وقت قصير لن أتذكر حرفا مما حكيته، فلم يسمَّ الإنسان إنسانا إلا؛ لأنه ينسى.

قد أفكر فيما بعد في أن أتسلى بسرد يومياتي كرضيع؛ إذ يبدو أنني أحمل جينات روائي يعشق السرد والحكاية، لكنني لم أقرر ذلك بعد، فعلي أن أتعرف أولا على حياتي الجديدة وما سيحدث لي فيها من مفاجئات، ثم أقرر ماذا سأفعل؟

ترى ماذا تخبئ لي غزة في المستقبل؟!

تلك الأرض العزيزة التي ابتلعت المحتل في أنفاقها.

تمت بحمد الله وفضله

الجمعة خير أيام الله

الخامس عشر من شهر رجب 1445

26 /1 /2024

كُتبت هذه الرواية بصوت مئات الأطفال الخدج الذين استشهدوا تحت الحصار الجائر على قطاع غزة والمستمر من 2008 وحتى كتابة هذه السطور في 2024 ، وربما بعدها

فهل يسمع العالم أصوات تلك الكائنات البريئة ويوقف الحصار الجائر المستمر من ستة عشر عاما

أم أن الأرض ضاقت بهم ،ولم يعد لهم مخرج سوى السماء!